أسرار الالتفات في

سورة النحل «جمع ودراسة»

الضمائر نموذجا

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠ م

رقم الإيداع: / ٢٠٢٠

الترقيم الدولي:

خير زاد
للنشر والطباعة

أسـرار الالتفـات

في سورة النحل «جمع ودراسة»

الضمائر نموذجا

إعداد وترتيب

عبد الجواد أحمد عبد المولى موسى السيوطي

غَفَرَ اللهُ لَهُ وَلِوَالِدِيهِ وَلِلمُسْلِمِينَ

خير زاد

للنشر والطباعة

كلمات طيبة.. صنعت مشاريع جبارة..

- «من ينشط منكم لجمع الصحيح؟» قالها إسحاق بن راهَويه في أحد مجالس الحديث يقول البخاري: (فوقع ذلك في قلبي).

خَمسُ كلماتٍ فقط كانت كفيلة بصُنع أعظم مشروع نَفَع الأمّة.. (صحيح البخاري)!

- «إنَّ خطك هذا يشبه خط المُحدِّثين».

قالها الإمام البرزالي للحافظ الذهبي.

يقول الذهبي: فحبَّب الله لي علم الحديث.. فصار أمام الدنيا في الحديث والتاريخ.

ومضة:

لا تدري ماذا تُحدِث كلماتك من أثرٍ في نفوس طُلابك وأبنائك ومن يسمعك من الشباب..

لأجل عبارة تشجيعٍ ألقيتَها.... غدًا من سمعها منك عالمًا أديبا مخترعًا قائدًا...

تمضي أنت وقد نسيته ولا ينساك! لكن يبقىٰ صدقة جارية في ميزانك.

الإهداء

أُهدي هذا الكتاب إلىٰ خير الأنام سيدي وقرة عيني محمد ﷺ.

ثم لوالدي - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - ووالدتي أطال الله عمرها في طاعته، فلولاهما ما وُجِدتُ في هذه الحياة، ومنهما تعلَّمت الصمود في وجه العقبات، مهما كانت الصعوبات.

إلىٰ أخي الشقيق محمود أسأل الله أن يبارك فيه وفي ذريته وأن يوفقه للخير، وزوجتي وأولادي الذين ضحُّوا براحتهم من أجلي، ولم يكونوا يومًا ما عائقا أمام تحقيق ما أطمح إليه، أسأل الله لهم التوفيق والسداد في حياتهم.

إلىٰ أساتذتي وإخواني جميعا وهم كُثر، منهم استقيتُ الحروف، وتعلَّمت كيف أنطق الكلمات، وأصوغ العبارات، وهم من وضعوا بعد الله قدمي علىٰ طريق الهداية، طريق الدعوة إلىٰ الله.

إلىٰ كل الإخوة والأخوات، الذين لم يدَّخروا جهدًا في مدِّي بالمعلومات ومساعدتي في كتابة هذا الكتاب.

إلىٰ الشعوب الإسلامية جميعا، وخاصة المرابطين في الأقصىٰ وبلاد الشام وجميع بلاد المسلمين..

داعيًا المولىٰ - سبحانه وتعالىٰ- أن يُكلَّل هذا العمل بالنجاح والتوفيق والقبول إنه وليّ ذلك والقادر عليه سبحانه.

شكر وعرفان

أتقدم بالشكر لله سبحانه أولًا علىٰ أن يسر لي إتمام هذا الكتاب علىٰ الوجه الذي أرجو أن يرضىٰ به عني – سبحانه وتعالىٰ –، فاللهم لك الحمد، أشكرك ربي علىٰ نعمك التي لا تُعد، وآلائك التي لا تُحد.

ثم أتوجه بالشكر كل لمن رعاني طالبا للعلم، وكل من رأىٰ خللا فسدده بالنصح الجميل، وقوّم معوجّها، وأعانني علىٰ تصحيح ما جاء فيها من خلل أو نقص، سائلا الله الكريم أن يثيبهم عني خيرًا.

كما أتوجه بالشكر الجزيل إلىٰ جميع أساتذتي الفضلاء ومشايخي الكرام الذين تعلمت منهم – وما زلت – فجزاهم الله عني خيرا.

كما أشكر جميع الإخوة الذين ساعدوني ولو بكلمة نصح وتوجيه وكل من أعانني علىٰ إنجاز هذا الكتاب، فلهم في القلب منزلة وإن لم يتسع المقام لذكرهم، فجزىٰ الجميع خيرا.

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علىٰ أشرف المرسلين، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين وبعد.

فإن القرآن الكريم بحر خضم عظيم لا ينضب معينه، أينما يوجه القاصد وجهه إليه يأت بخير، وهذا البحر الزخَّار لا ساحل له، ولا يدرك له قرار، من أرد الوصول إلىٰ إحصاء حقائقه لم يجد إلىٰ ذلك سبيلا، لأن الله عَزَّوَجَلَّ خاطب أهل البلاغة والبيان بقوله تعالىٰ ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(١). وقد اختار الله – عَزَّوَجَلَّ – للقرآن الكريم اللغة التي تكون وعاءً لكتابه، فتحمل إلينا فصاحة الألفاظ وبلاغة الأساليب التي تكون منهلا لفهم ما جاء في سوره وآياته وكلماته وحروفه، ولاشك أن لغة القرآن الكريم لغة تحمل مراد الله إلىٰ خلقه في ترتيب وتنظيم إلهيّ يبين المعني بعد المعني، حيث خلا من الخلل بين أجزائه أو آياته أو جمله أو عباراته أو كلماته أو حروفه، لذا وقف الجميع أمام بلاغات القرآن الكريم إعظامًا وتقديرًا وتقديسًا.

يهدف هذا الكتاب إلىٰ بيان التعرف علىٰ أسرار الالتفات في السورة الكريمة والانتقال من أسلوب إلىٰ آخر، والسر البلاغي والإعجازي، والبياني فيها.

إذ المطالع لكتاب الله تعالىٰ متدبرا لكلماته وأساليبه يجد أن الآيات تنتقل بك من طريقة إلىٰ أخرىٰ، ومن أسلوب لآخر، ومن وجهة إلىٰ وجهة تغايرها، حتىٰ إنه ليبدُو للقارئ والسامع أن هذه الأساليب في ظاهرها كأنها من المُعضل والمُشْكل وليس له معنىٰ، وهي في غاية البيان والبلاغة، وكأنها ملتبسة وهىٰ في غاية الوضوح،

---

(١) سورة الإسراء، الآية، (٨٥).

فلا يوجد في القرآن موطن ظاهره يُرىٰ مشكلًا إلا وتجد وراءه سرٌ بيانيٌ عظيم وإن عجز عن فهمه العلماء وقَصُر دونه نظر البُلغاء.

إن جوانب الإعجاز في القرآن الكريم لن تخضع للإحصاء ولا يحيط بها استقصاء إلىٰ يوم القيامة، لكن علىٰ العلماء الاستفادة من لغته التي خرقت العادة، وخرجت عن الإلف وفاقت حد العرف، لذا آمن بهديه من آمن، وكفر به من كفر، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾(١).

إن الدقة التي تميز بها القرآن الكريم في اختيار ألفاظه وانتقاء كلماته، لتجعلنا نقف مشدوهين أمام بلاغة القرآن التي حيّرت العقول. فإذا اختار اللفظ معرفة كان ذلك لسبب، وإذا جاء نكرة كان ذلك لغرض، وإذا كان اللفظ مفردًا كان ذلك لمقتضًىٰ يطلبه، وإذا كان مجموعًا كان الحال يناسبه، وقد يختار – سبحانه – الكلمة ويهمل مرادفها الذي يشترك معها في بعض الدلالة، وقد يفضل كلمة علىٰ أخرىٰ والكلمتان ظاهرًا بمعنىٰ واحد، بل قد يردف لفظة علىٰ أخرىٰ وهما في الظاهر بمعنىٰ واحد، وفي مواطنَ كثيرة جمع القرآن بين لفظين وهما بمعنىٰ واحد أو علىٰ الأقل بينهما تشابه كبير في الاستعمال والدلالة.

وهذه الأساليب الموجودة في القرآن الكريم، جعلته يأسر القلوب ويحير الأفهام، ولتظهر بعضا من وجوه الإعجاز في معانيه وكلماته وأسراره، تحدي به النبي ﷺ الناس أجمعين، قال تعالىٰ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾(٢).

لذا رجوت من الله أن يفتح علىٰ، وأن أعطر قلمي بنيل الشرف في وضع لبنة في

(١) سورة فصلت، الآيات، (٤٠-٤١)

(٢) سورة الإسراء، الآية، (٨٨)

صرح القرآن الكريم الشامخ بهذا الكتاب «**أسرار الالتفات في سورة النحل «الضمائر نموذجًا**».

ولسان حالي في عملي هذا هو قول القائل:

أسير خلف ركاب النُّجب ذا عرج ... مؤملا كشف ما لا قيت من عوجِ

فإن لحقت بهم من بعد ما سبقوا ... فكم لرب الورىٰ في ذاك من فرجِ

وإن بقيت بظهر الأرض منقطعا ... فما علىٰ أعرج في ذاك من حرج

أولاً: معنى الالتفات

الالتفات:

هو نقل الكلام من أسلوب إلىٰ أسلوب آخر تطريةً واستدرارًا للسامع، وتجديدًا لنشاطه، وصيانة لخاطره من الملال والضجر، بدوام الأسلوب الواحد علىٰ سمعه)[١].

وقال السيوطي: [٢] الالتفات: نقل الكلام من أسلوب إلىٰ آخر.

وقيل: معناه هو العدول من أسلوب في الكلام إلىٰ أسلوب آخر مخالف للأول[٣].

سبب الالتفات:

يرجع الكثير ممن كتبوا في علوم القرآن أن سبب الالتفات هو البُعد عن السآمة والملل من سير الكلام علىٰ وتيرة واحد[٤].

فالالتفات من التكلم إلىٰ الخطاب، ومن التكلم إلىٰ الغيبة، وغير ذلك من

---

(١) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، (٣/ ٣٦١).

(٢) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، إمام حافظ مؤرخ، له نحو٦٠٠ مصنف، منها الكبير، والرسالة الصغيرة، نشأ في القاهرة يتيمًا، كان يلقب بابن الكتب، ولما بلغ الأربعين اعتزل الناس، وخلا بنفسه في روضة المقياس، فألف أكثر كتبه، وكان الأغنياء والأمراء يزورونه ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردها، وطلبه السلطان مرارا فلم يحضر إليه، وبقي علىٰ ذلك إلىٰ أن توفي سنة ٩١١هـ. من كتبه: الإتقان في علوم القرآن، الجامع الصغير، وحسن المحاضرة، وغيرها.

(٣) الطراز لأسرار البلاغة، يحيىٰ بن حمزة العلوي (٢/ ٧١).

(٤) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، (٣/ ٣٦٢).

أساليب الالتفات التي نطق بها القرآن الكريم، والتي تُظهر جزالة اللفظ القرآني وفصاحته وقوته، فتتنوع فيه الأساليب القرآنية المخاطبة للمتكلم والغائب، وغيرها من الأساليب.

ثانيًا: شيئا من فضائل القرآن

القرآن الكريم أهميته وفضله:

القرآن كلام الله - تعالىٰ -، وسبيل هدايته للخلق، وهو عماد لغة العرب الأسمىٰ، تدين له العربيَّةُ في بقائها وسلامتها، وتستمدُّ منه علومها ومعانيها، القرآن سمة الدين العالية؛ يرجع إليه الإسلام في كل شيء عقيدة وعبادة، وحُكما وأحكاما، أعمالا وأخلاقا، مواعظ وقصص.

أما أهله فقد أعزهم الله بعز كتابه، وشرّفهم بشرف الانتساب إليه، فضائلهم تكاد لا تنحصر، كيف لا وهم أهل الله وخاصته لذا فهم خير الأمة لتعلقهم بكتاب ربها، هم كالاترُجّة، ريحها طيب وطعمها حلو.

وقد وردت في فضل القرآن الكريم أحاديث كثيرة تجعل المسلم يتمسك به قراءة وعملا نأخذ طرفًا منها بإيجاز.

ومن هذه الأحاديث الواردة في فضائله وفضائل حامليه وقارئيه:

۞ عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**خيركم مَنْ تعلَّم القرآن وعلَّمه**»(١).

۞ وعن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقال لصاحب القرآن**: اقرأ، وارتق، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية **تقرؤها**»(٢).

۞ وعن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنَّ لله أهلين من الناس، حملةُ القرآنِ هم أهل الله وخاصته**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، باب: خيركم من تعلم القرآن.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب: استحباب الترتيل في القرآن.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند، كتاب فضائل القرآن.

۞ وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «**من قرأ حرفًا من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ألم حرف، ولكنْ ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**»(١).

۞ وعن أبي أمامةَ الباهلي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه**»(٢).

۞ وعن سالم عن أبيه رضي الله عنهما قال: قال: رسول الله ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالًا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار**» رواه البخاري(٣).

۞ وعن أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: قال: النبي ﷺ «**إن من إجلال الله: إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط**»(٤).

۞ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران**»(٥).

۞ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله - ﷺ - «**إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب**»(٦).

۞ وعن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل المؤمن**

---

(١) أخرجه الترمذي، في سننه، باب، ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ما له من الأجر.
(٢) أخرجه مسلم باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة.
(٣) أخرجه البخاري، باب قول النبي ﷺ: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به...
(٤) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب باب في تنزيل الناس منازلهم.
(٥) أخرجه أبو داود، كتاب تفريع أبواب الوتر، باب في ثواب قراءة القرآن.
(٦) أخرجه الترمذي، كتاب فضائل القرآن.

الذي يقرأ القرآن كمثل الأُتْرُجَّة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها طيب، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر»(١).

۞ وعن أبي موسىٰ ﷺ أنه قال: قال ﷺ **«تعاهدوا القرآن فو الذي نفسي بيده لهو أشد تفصّيًا من الإبل في عُقُلها»**(٢).

۞ وعن أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»**(٣).

۞ وعن عمر بن الخطاب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع آخرين»**(٤).

۞ وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تجعلوا بيوتكم مقابر، فإن الشيطان يفر من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة»**(٥).

۞ وعن النواس بن سمعان أنه قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: يؤتىٰ بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمهم سورة البقرة وآل عمران، وضرب لهما رسول الله - ﷺ - ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: «وإنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شَرْقٌ أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجَّان عن صاحبهما» (٦).

---

(١) أخرجه البخاري، في كتاب الأطعمة، باب ذكر الطعام.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب استذكار.

(٣) أخرجه: البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب في فضل سورة البقرة.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده، مسند أبي هريرة.

(٦) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة.

۞ وعن أبي أمامة الباهلي أن رسول الله ﷺ قال: «**اقرؤوا البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة**»(١).

۞ وعن عبد الله بن مسعود قال: «**إن هذا القرآن مأدبة الله، فخذوا منه ما استطعتم، فإني لا أعلم شيئا أصفر من خير، من بيت ليس فيه من كتاب الله شيء. وإن القلب الذي ليس فيه من كتاب الله شيء، خرب كخراب البيت الذي لا ساكن له**»(٢).

۞ وروىٰ البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «جَمَعت المحكم في عهد رسول الله ﷺ»، فقلت له: وما المحكم؟ قال: «المفصّل»(٣).

۞ وعن أبي هريرة، أنه سمع رسول الله - ﷺ -، يقول: «**ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنىٰ بالقرآن، يجهر به**» (٤).

۞ وعن عقبة بن عامر يقول: خرج إلينا رسول الله ﷺ ونحن في الصفة فقال: «**أيكم يحب أن يغدو إلىٰ بطحان أو العقيق فيأتي كل يوم بناقتين كوماوين، الكوماء: الناقة العظيمة السنام زهراوين فيأخذهما في غير إثم ولا قطع رحم؟**» قلنا: كلنا يا رسول الله يحب ذلك، قال: «**فلأن يغدو أحدكم إلىٰ المسجد فيتعلم آيتين من كتاب الله خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل**»(٥).

۞ وعن أبي بريدة قال: كنت عند النبي ﷺ فسمعته يقول: «**إن القرآن يلقىٰ**

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة.
(٢) أخرجه الدارمي، كتاب فضائل، القرآن باب: فضل من قرأ القرآن.
(٣) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب تعليم الصبيان القرآن.
(٤) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن.
(٥) أخرجه أبو داود، كتاب تفريع أبواب الوتر، باب في ثواب قراءة القرآن.

صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب، فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك؛ فيقول: أنا صاحبك القرآن الذىٰ أظمأتك في الهواجر، وأسهرت ليلتك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة، قال: فيعطىٰ المُلك بيمينه، والخلد بشماله، ويوضع علىٰ رأسه تاج الوقار، ويكسىٰ والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا. فيقولان: بم كسينا هذا؟ فيقال لهما: بأخذ ولدكما القرآن. ثم يقال له: اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها. فهو في صعود ما دام يقرأ، هذا كان أو ترتيلا»(١).

(١) أخرجه الدارمي، كتاب فضائل، القرآن باب: فضل سورة البقرة وآل عمران.

ثالثا : سورة النحل وما ورد فيها من فضائل

(أ) : فضائل سورة النحل

لسورة النحل فضائل لا تحصي، لاشتمال آياتها وكلماتها علىٰ ذكر النعم التي أنعم الله عَزَّوَجَلَّ بها علينا ومن أسماء السورة قال قتادة:(١) وكانت هذه السورة تسمىٰ سورة النعم، وقيل كان يقال لسورة النحل سورة النعم لكثرة تعداد النعم فيها، وهي مائة وثمان وعشرون آية، وألفان وثمانمائة وأربعون كلمة، وسبعة آلاف وسبعمائة وسبعة أحرف)(٢).

✍ **يقول الاستاذ دروزة**(٣) عن عظمة هذه السورة «وفي السورة مواضيع متنوعة، غير أن طابعها المميز تعداد نعم الله ومشاهد عظمته والتذكير بما يسّر الله للناس من وسائل الرزق، وسخر لهم من نواميس الكون لإثبات استحقاقه وحده للعبادة والتنديد بالكافرين والمشركين وإنذارهم، والتنويه بالمؤمنين الشاكرين وتطمينهم، وفيها مبادئ أخلاقية شخصية واجتماعية رائعة، وفيها إشارات إلىٰ

---

(١) أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي البصري، ولد سنة٦١هـ، مفسر حافظ ضرير، قال الإمام أحمد ابن حنبل: قتادة أحفظ أهل البصرة، وكان مع علمه بالحديث، رأسا في العربية ومفردات اللغة وأيام العرب والنسب، وكان يرىٰ القدر، وقد يدلس في الحديث، مات بواسط في الطاعون سنة ١١٧ وقيل ١١٨هـ. الأعلام، للزركلي.

(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد المعروف بالخازن.

(٣) محمد عزة (وتنطق عِزّت) بن عبد الهادي دروزة، مفكر وكاتب ومناضل فلسطيني، ولد في مدينة نابلس بفلسطين سنة ١٨٨٧م، انتقل إلىٰ بيروت للعمل في مديرية البرق والبريد، ثم أصبح مديرًا لها، ثم انتقل إلىٰ العمل في إدارة الأوقاف الإسلامية بفلسطين. من كتبه: القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها. التفسير الحديث، وغيرها، وتوفي بدمشق، ١٩٨٤م.

عقائد العرب باتخاذ الله بنات وكراهيتهم للبنات، وإلىٰ هجرة المسلمين الأولىٰ»(١).

ومن أهم مقاصدها التذكير بنعم الله تعالىٰ والتي تدل علىٰ المنعم سبحانه، وذلك إلزاما للخلق بعبوديته وحده وتحذيرا من جحود نعمه سبحانه علىٰ عباده والتي لا تعد ولا تحصىٰ.

«وهذه السورة هادئة الإيقاع، عادية الجرس، ولكنها مليئة حافلة، موضوعاتها الرئيسية كثيرة متنوعة.. وهي كسائر السور المكية تعالج موضوعات العقيدة الكبرىٰ والغيبيات، كالألوهية والوحي، والبعث، والنبوات، ولكنها تلم بموضوعات جانبية أخرىٰ لها تعلق بالغيبيات والألوهية، التي تصل بين دين إبراهيم- عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- ودين محمد- ﷺ- وتلم بحقيقة الإرادة الإلهية والإرادة البشرية فيما يختص بالإيمان والكفر والهدىٰ والضلال، كما تتحدث عن وظيفة الرسل، وسنة الله في المكذبين لهم من أقوامهم، كما تحدثت عن الهجرة في سبيل الله، وفتنة المسلمين في دينهم، وجزاء هذا كله عند الله.. ثم تضيف إلىٰ العقيدة المعاملة والسلوك كالعدل والإحسان والوفاء بالعهد، وغيرها من موضوعات السلوك القائم علىٰ العقيدة.. وهكذا هي مليئة حافلة من ناحية الموضوعات التي تعالجها (٢).

❐ (ب) : اسم السورة ومكيتها ومدنيتها.

قال القرطبي والشوكاني: «إن سورة النحل مكية كلها، في قول الحسن وعكرمة، وعطاء وجابر. وتسمىٰ بسورة النّعم أيضا وذلك لكثرة ما عدد الله فيها من نعمه علىٰ عباده وقيل: هي مكية غير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ

(١) التفسير الحديث لدروزة، (٥/ ١١٥).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤/ ٢١٥٨).

وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴾، نزلت بالمدينة في شأن التمثيل بحمزة وقتلىٰ أحد. وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل:١٢٧]، وقوله: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ ﴾ [النحل:١١٠]، وأما قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ﴾ [النحل:٤١] فمكية نزلت في شأن هجرة الحبشة(١)».

وقال ابن عباس: هي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة بعد قتل حمزة، وهي قوله: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [النحل:٩٥]- إلىٰ قوله- ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٦]. ومن هنا تبين أن السورة مكية في جميع آياتها، إلا آية واحدة أو آيتين أو ثلاثة علىٰ ما قاله أهل التحقيق من علماء التفسير والتأويل.

وزاد مقاتل قوله تعالىٰ: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ ﴾ [النحل:١٠٦]. وقوله: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ﴾ [النحل:١١٢] الآية(٢).

وسميت سورة النحل، لاشتمالها في الآيتين [٦٨- ٦٩] علىٰ قصة النحل التي ألهمها الله امتصاص الأزهار والثمار، وتكوين العسل الذي فيه شفاء للناس، وتلك قصة عجيبة مثيرة للتفكير والتأمل في عجيب صنع الله تعالىٰ، والاستدلال بهذا الصنع علىٰ وجود الله سبحانه.

❐ (ج) علاقة السورة بما قبلها.

سورة النحل ترتبط بما قبلها ارتباطا وثيقًا، في الموضوعات العامة التي تناولتها السورة، فنجد أن سورة الحجر، لما قال تعالىٰ: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(٣). قال بعد ذلك في وعيد المستهزئين «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أعقب هذا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي(١٠/ ٦٥).
(٢) لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن (٣/ ٦٦).
(٣) سورة الحجر، الآية، (٩٢:٩٣).

ببيان تعجيل الأمر، بقوله: ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾(١)، وزاد هذا بيانًا قوله سبحانه وتعالىٰ: (عَمَّا يُشْرِكُونَ) فنزه سبحانه نفسه عما فاهوا به في استهزائهم وشركهم وعظيم بهتهم وأتْبع ذلك تنبيها وتعظيما فقال: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾(٢)، ثم أتبع ذلك بذكر ابتداء خلق الإنسان وضعف جبلته «خلق الإنسان من نطفة»، ثم أبلغه تعالىٰ حدا يكون منه الخصام والمحاجة، كل ذلك ابتلاء منه واختبار ليميز الخبيث من الطيب، وأعقب هذا بذكر بعض ألطافه – سبحانه – في خلق الأنعام وما جعل فيها من المنافع المختلفة، فالسورة ترتبط بما قبلها لذكرها ما ذكر في سورة الحجر، من أمور تتعلق بخلق الإنسان وضعف جبلته، وذكر ما يتعرض له من الابتلاء والاختبار، ليظهر التمحيص للخلق.

✍ **قال البقاعي**(٣) عن فوائد علاقة السورة بما قبلها فقال – رَحِمَهُ ٱللَّهُ –: «لما ختم الحجر بالإشارة إلىٰ إتيان اليقين، وهو صالح لموت الكل، ولكشف الغطاء بإتيان ما يوعدون مما يستعجلون به استهزاء من العذاب في الآخرة بعد ما يلقون في الدنيا، ابتدأ هذه بمثل ذلك سواء، غير أنه ختم تلك باسم الرب المفهم للإحسان لطفًا بالمخاطب، وافتتح هذه باسم الأعظم الجامع لجميع معاني الأسماء لأن ذلك أليق بمقام التهديد، ولما هو معروف من المعاني المتنوعة في أثناء السورة، وسيكرر هذا الاسم فيها تكريرًا تعلم منه صحة هذه الدعوىٰ، وعبر عن الآتي بالماضي إشارة

---

(١) سورة النحل الآية، (١).

(٢) سورة النحل، الآية، (٣).

(٣) أبو الحسن برهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّبَاط البقاعي، مؤرخ أديب، ولد سنة ٨٠٩هـ، أصله من البقاع في سورية، وسكن دمشق ورحل إلىٰ بيت المقدس والقاهرة، وتوفي بدمشق سنة ٨٨٥هـ، من مؤلفاته: نظم الدرر، ومصاعد النظر. الأعلام للزركلي (١/ ٥٦).

إلىٰ تحققه تحقق ما وقع ومضىٰ، وإلىٰ أن كل آتٍ ولا بد قريب، فقال تعالىٰ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل:١] أي الملك الأعظم الذي له الأسماء الحسنىٰ، والصفات العلىٰ، بما يُذّل الأعداء، ويُعزّ الأولياء، ويشفي صدورهم، ويقر أعينهم)(١) فالإشارة التي ذكرها البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ- منها ما يكون عن كشف الغطاء للعذاب لمن عارض بعد ما وجدوه في الدنيا، إضافة إلىٰ لطف الله تعالىٰ بأهل الإيمان وهذا ما تقر به قلوب أهل الإيمان.

«وارتباط السورة بما قبلها وبخاصة آخر سورة الحجر شديد الارتباط بأول هذه السورة، فإن قوله تعالىٰ في آخر السورة السابقة: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢﴾ [الحجر:٩٢] يدل علىٰ إثبات الحشر يوم القيامة وسؤالهم عما فعلوه في الدنيا، وكذلك قوله تعالىٰ: واعبد ربك حتىٰ يأتيك اليقين يدل علىٰ ذكر الموت، وكل من هاتين الآيتين ظاهر المناسبة لقوله هنا في أول السورة: أتىٰ أمر الله إلا أنه في الحجر أتىٰ بقوله: يأتيك بلفظ المضارع، وهنا أتىٰ بلفظ الماضي لأن المراد بالماضي هنا: أنه بمنزلة الآتي الواقع، وإن كان منتظرًا، وذلك لقرب وقوعه وتحقق مجيئه».

بهذا البدء: «أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ» تبدأ هذه السورة، فيلتقىٰ بدؤها مع ختام السورة التي قبلها، وكأنه جواب علىٰ سؤال تطرحه ختام سورة الحجر، وهو قوله تعالىٰ: « وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ » كان هذا مثيرا لبعض الأسئلة: ما هو اليقين؟ ومتىٰ هو؟ وهل يطول انتظاره؟ فجاءت الإجابة علىٰ هذه الأسئلة في قوله تعالىٰ: «أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ» إذن فاليقين: هو أمر الله، والذي هو يوم القيامة.. حيث كانت أسئلة المشركين المنكرين لهذا اليوم(٢).

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي،(١١/ ١٠٢).
(٢)التفسير المنير، للزحيلي، (١٤/ ٧٩).

(د) ترتيب السورة في المصحف وسبب النزول.

لقد حظيت سورة النحل بترتيب مصحفي منجم من رب العزة إلىٰ اللوح المحفوظ إلىٰ جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلىٰ النبي ﷺ، حيث جاءت بين سورتي الحجر والكهف (جاءت السورة في ترتيب المصحف بعد سورة الحجر، وجاءت بعد سورة الكهف وقبل سورة نوح في الترتيب علىٰ حسب النزول)(١)، هذا هو الترتيب الذي وضع منجما من النبي ﷺ، يختص بهذه السورة الكريمة. والسورة نزلت بعد سورة الكهف وقبل سورة نوح، حسب ترتيب النزول(٢).

سبب النزول:

قال ابن عباس: لما أنزل الله تعالىٰ قوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾(٣)، قال الكفار بعضهم لبعض إن هذا يزعم أن القيامة قد قرُبت فأمسِكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتىٰ ننظر ما هو كائن، فلما رأوا أنه لا ينزل شيء، قالوا: ما نرىٰ شيئا، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾(٤)، فأشفقوا وانتظروا قرب الساعة، فلما امتدت الأيام قالوا يا محمد ما نرىٰ شيئا مما تخوفنا به، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ فَوَثَبَ النَّبِيُّ ﷺ ورفع الناس رؤوسهم(٥).

(هـ) حديث السورة إجمالا.

تحدثت السورة الكريمة في مجملها، في موضوعات العقيدة الكبرىٰ: الألوهية،

---

(١) التفسير الحديث، محمد دروزة (٥/ ١١٥).
(٢) مفاتيح الغيب، للرازي (١٩/ ١٦٧).
(٣) سورة القمر، الآية، (١).
(٤) سورة الأنبياء، الآية، (١).
(٥) أسباب نزول القرآن، الواحدي (٢٧٨). زاد المسير ابن الجوزي (٢/ ٥٤٩).

والوحي، والبعث، كما تحدثت السور المكية، وزاد علىٰ ذلك إلمام السورة الكريمة بموضوعات جديدة، «وهي مكية والأحكام فيها قليلة، فهي تذكر آيات الله ومخلوقاته وتسخيرَه إياها للإنسان، وتذكر نعمه ورزقه له، وما في ذلك من الدلالات علىٰ ألوهيته وحقه في العبادة، ومنها بضع آيات نزلت بين مكة والمدينة»(١).

وعلىٰ الرغم من حديثها عن العقيدة إلا أنها تلم بموضوعات جانبية أخرىٰ تتعلق بتلك الموضوعات الرئيسية. تلم بحقيقة الوحدانية الكبرىٰ التي تصل بين دين إبراهيم- عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- ودين محمد- ﷺ- وتلم بحقيقة الإرادة الإلهية والإرادة البشرية فيما يختص بالإيمان والكفر والهدىٰ والضلال. وتلم بوظيفة الرسل، وسنة الله في المكذبين لهم، وتلم بموضوع التحليل والتحريم وأوهام الوثنية حول هذا الموضوع. وتلم بالهجرة في سبيل الله، وفتنة المسلمين في دينهم، والكفر بعد الإيمان وجزاء هذا كله عند الله.. ثم تضيف إلىٰ موضوعات العقيدة موضوعات المعاملة: العدل والإحسان والإنفاق والوفاء بالعهد، وغيرها من موضوعات السلوك القائم علىٰ العقيدة، وهكذا هي مليئة حافلة من ناحية الموضوعات التي تعالجها.

فأما الإطار الذي تعرض فيه هذه الموضوعات، والمجال الذي تجري فيه الأحداث، فهو فسيح شامل.. هو السماوات والأرض، والماء الهاطل والشجر النامي، والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، والبحار والجبال والمعالم والسبل والأنهار، وهو الدنيا بأحداثها ومصائرها، والأخرىٰ بأقدارها ومشاهدها، وهو الغيب بألوانه وأعماقه في الأنفس والآفاق، في هذا المجال الفسيح يبدو سياق السورة وكأنه حملة ضخمة للتوجيه والتأثير واستجاشة العقل والضمير»(٢).

---

(١) التفسير والبيان لأحكام القرآن، عبد العزيز الطريفي،(٤/ ١٦٦٣).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٤/ ٢١٥٨).

لقد وضح القول من إلمام السورة الكريمة بموضوعات كثيرة عالجتها، في بديع الخلق وجمال الصنع، في النظر والاعتبار في خلق البحار وجريان الأنهار، وعظمة الجبال والمعالم والسبل الممهدة، وقول الكفار بأن شخصا يعلّم النبي القرآن مع علمهم بأنه أميّ ولم يسافر قط، وما حرّم الله من لحوم الحيوانات وذبائح أهل الكتاب، كما أشارت السورة الكريمة إلىٰ ملّة إبراهيم وأنه كان حنيفا مسلما، لذا لا يمكن أن يقال إن فصول السورة وموضوعاتها منقطعة عن بعضها البعض، بل إن التناسق بين موضوعاتها أكثر ظهورًا واتساقًا «وهذا يبرر القول إن فصولها نزلت متتابعة فدونت متتابعة كما نزلت إلىٰ أن تمت»(١).

(١) التفسير الحديث، محمد دروزة، (٥/ ١١٥).

رابعًا: أسرار الالتفات في سورة النحل

أولاً: أسرار الالتفات عن الغَيْبة إلى الخطاب

الالتفات عن الغَيْبة إلىٰ الخطاب في القرآن الكريم ورد هذا الأسلوب في هذه السورة الكريمة في مواضع عدة منها، وسنتناول بعضا من نماذج الالتفات عن الغيبة إلىٰ الخطاب في السورة الكريمة.

النموذج الأول: في الالتفات عن الغَيْبة إلى الخطاب

قال تعالىٰ: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾[1].

أولا: تفسير الآية موضع الالتفات والقراءات الواردة فيها

القراءات الواردة في الآية:

اختلف القراء في «ينزل الملائكة» فقرأ (روح)[2] {تَنَزّل} بتاء مثناة من فوق مفتوحة، ونون مفتوحة وزاي مفتوحة مشدّدة، مضارع {تنزّل} والأصل {تتنزّل} فحذفت إحدىٰ التاءين تخفيفا، و {الملائكةُ} بالرّفع فاعل.

---

(١) سورة النحل، الآية، (٢).

(٢) روح بن عبد المؤمن أبو الحسن الهذلي، مولاهم بصري نحوي مقرئ. صاحب يعقوب الحضرمي وأنجب تلاميذه. جلس للإقراء فأخذ عنه أحمد الحلواني، وأبو الطيب بن حمدان. وسمع الحديث من حماد بن زيد، وأخذ عنه البخاري، وطائفة. توفي سنة ٢٣٤هـ. وقيل غير ذلك. ينظر: معرفة القراء الكبار، الذهبي (ص:١٢٦). غاية النهاية، ابن الجزري (١/ ٢٨٥).

وقرأ (ابن كثير(١)، وأبو عمرو(٢)، ورويس(٣)) {يُنْزِلُ} بإسكان النون، وتخفيف الزاي المكسورة، علىٰ أنها مضارع «أنزل» الرباعي، و «الملائكةَ» بالنصب مفعول به، وقرأ الباقون وهم (نافع(٤)، وابن عامر(٥)، وعاصم(٦)

---

(١) عبد الله بن كثير بن عمرو بن هرمز أبو معبد المكي الداري الكناني مولاهم، تابعي، أحد القراء السبعة، ولد بمكة سنة ٤٥هـ، أخذ القراءة عرضًا عن عبد الله بن السائب، ودرباس مولىٰ عبد الله بن عباس ومجاهد بن جبر وغيرهم. أشهر الرواة عنه البزّي وقنبل، ومات بمكة سنة ١٢٠هـ. ينظر: معرفة القراء الكبار، الذهبي (ص:٤٩). غاية النهاية، الذهبي (١/ ٤٤٣). وفيات الأعيان (٣/ ٤١).

(٢) أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن عبد الله المازني التميمي البصري وهو أحد القراء السبعة قرأ عليه خلق كثير؛ منهم اليزيدي، ولد سنة ٦٨هـ. وأخذ القراءة عن مجاهد وسعيد بن جبير، وعطاء. وحدث عن أنس بن مالك وعطاء بن أبي رباح. أشهر رواته الدوري والسوسي. توفي سنة ١٥٤هـ. ينظر: معرفة القراء الكبار، الذهبي (ص:٥٨).

(٣) أبو عبد الله محمد بن المتوكل اللؤلؤي البصري المعروف برويس، مقرئ حاذق مشهور. وهو صاحب يعقوب الحضرمي وأحد الرواة عنه، قرأ عليه محمد بن هارون التمار، وأبو عبد الله الزبيري، الفقيه الشافعي، توفي بالبصرة سنة ٢٣٨هـ. وقيل غير ذلك. ينظر: معرفة القراء الكبار الذهبي (ص: ١٢٦). غاية النهاية في طبقات القراء (٢/ ٢٣٤).

(٤) أبو رويم نافع بن عبد الرحمن بن أبي نُعيم المدنيّ مولىٰ جعونة الليثي، أحد القراء العشرة وإمام القراء في المدينة النبوية، أصله من أصفهان، ولد في حدود ٧٠هـ، كان إذا تكلم تفوح من فيه ريح المسك، قال قرأت علىٰ سبعين من التابعين. أخذ القراءة عن الأعرج، وأبي جعفر وشيبة بن نصاح. أشهر رواته، قالون وورش، توفي بالمدينة عام ١٦٩هـ. ينظر غاية النهاية في طبقات القراء(٢/ ٣٣٢).

(٥) عبد الله بن عامر بن يزيد اليحصبي، إمام أهل الشام في القراءة. ولد سنة ٢١هـ. وقيل غير ذلك. أخذ القراءة عرضا علىٰ أبي الدرداء، والمغيرة بن أبي شهاب صاحب عثمان، وروىٰ عنه القراءة عرضا يحيىٰ الذماري، وحدث عن النعمان بن بشير وواثلة بن الأسقع. أشهر الرواة عنه هشام وابن ذكوان. توفي بدمشق سنة ١١٨هـ. معرفة القراء الكبار، الذهبي (ص: ٤٩).

(٦) أبو بكر عاصم بن بهدلة أبي النَّجُود الكوفي الحناط مولىٰ بنىٰ أسد. أحد القراء السبعة، =

وحمزة(١) والكسائي(٢) وأبو جعفر(٣) وخلف العاشر(٤) «يُنَزّل» بتشديد الزاي المكسورة، وفتح النون، مضارع «نزّل» مضعف العين، و «الملائكة» بالنصب مفعول به(٥).

انتهت إليه رئاسة الإقراء بالكوفة بعد أبي عبد الرحمن السلمي. أخذ القراءة عرضًا عن زر بن حبيش وأبي عبد الرحمن السلمي، أشهر الرواة عنه حفص بن سليمان وشعبة والأعمش توفي سنة ١٢٧هـ ينظر: غاية النهاية ابن الجزري (١/ ٣٤٦). معرفة القراء الكبار (ص:٥١).

(١) أبو عمارة حمزة بن حبيب بن عمارة الزيات الكوفي التيمي مولاهم أحد القراء السبعة، ولد سنة ٨٠هـ، أخذ القراءة عرضًا عن الأعمش وجعفر الصادق وغيرهم روىٰ القراءة عنه أناس كثيرون منهم: إبراهيم بن أدهم وسليم بن عيسىٰ، كان إمامًا حجة، توفي بحُلوان بالعراق سنة ١٥٦هـ وقيل غير ذلك. ينظر: غاية النهاية (١/ ٢٦٢). وفيات الأعيان، ابن خلكان (٢/ ٢١٦).

(٢) أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي الأسدي، مولاهم الكوفي المقرئ النحوي. ولد في حدود سنة ١٢٠هـ. وقرأ القرآن وجوده علىٰ حمزة الزيات وسمع من جعفر الصادق. أخذ عنه أبو عمر الدوري، وأبو الحارث، وللكسائي تصانيف منها كتاب معاني القرآن، القراءات، كتاب العدد توفي سنة ١٨٧هـ. وقيل غير ذلك. معرفة القراء الكبار الذهبي (ص:٧٢)

(٣) أبو جعفر يزيد بن القعقاع القارئ أحد القراء العشرة مدني مشهور رفيع الذكر، قرأ القرآن، علىٰ مولاه عبد الله بن عياش المخزومي. وصلىٰ بابن عمر وحدث عن أبي هريرة وابن عباس. أخذ القراءة عنه ابن جماز وابن وردان ونافع المدني. توفي سنة ١٣٢هـ. وقيل غير ذلك. ينظر: غاية النهاية، (٢/ ٣٨٢). وفيات الأعيان (٦/ ٢٧٥). معرفة القراء الكبار، الذهبي (ص:٤٠).

(٤) أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب الأسدي البزار، عن سُليم عن حمزة. ولد سنة ١٥٠هـ. حفظ القرآن وهو ابن عشر سنين. وكان ثقة زاهدًا عالمًا، أخذ القراءة عرضًا عن سليم بن عيسىٰ وعبد الرحمن بن أبي حماد عن حمزة، روىٰ عنه إسحاق الوراق، وإدريس الحداد. توفي ببغداد سنة ٢٢٩هـ. ينظر غاية النهاية، ابن الجزري(١/ ٢٧٣). معرفة القراء الكبار،(ص:١٢٤).

(٥) الهادي شرح طيبة النشر، محمد سالم محيسن (٢/ ٣٥٣).

✍ **قال ابن خالويه**(١) في توجيه هذه القراءات «والحجة لمن قرأه بالتاء والتشديد: أنه جعل الفعل لما لم يسم فاعله، ورفعهم بذلك. والحجة لمن قرأه بإلياء مشددًا أو مخففًا: أنه جعل الفعل لله عَزَّوَجَلَّ، فأضمره فيه لتقدم اسمه، ونصب (الملائكة) بتعدي الفعل إليهم، وأخذ المشدد من نزل، والمخفف من أنزل»(٢).

✍ **قال الاستاذ إسماعيل حقي**(٣) «وفي الآية دلالة علىٰ أن الملائكة وسائط بين الله وبين رسله وأنبيائه في إبلاغ كتبه ورسالاته وأنهم ينزلون بالوحي علىٰ بعضهم دفعة في وقت واحد كما نزلوا بالتوراة والإنجيل والزبور علىٰ موسىٰ وعيسىٰ وداود والدالّ علىٰ هذا قراءة ابن كثير وأبو عمرو، وينزل من أنزل منجمًا موزعًا علىٰ حسب المصالح والحوادث كما نزلوا بالقرآن منجمًا في ثلاث وعشرين سنة علىٰ ما يدل عليه قراءة الباقين لأن في التنزيل دلالة علىٰ التدرج والتكثر والإنزال بشموله التدريجي والدفعي أعم منه وأنه ليس ذلك النزول بالوحىٰ جملة واحدة أو متفرقا إلا بأمر الله وعلىٰ ما يراه خيرا وصوابًا»(٤).

ولفظة (الروح) وردت كثيرًا في القرآن، لكن بمعاني مختلفة حسب سياق القرآن والقرائن الدالة علىٰ المعنىٰ المطلوب في الآيات، وهنا قوله تعالىٰ: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ

---

(١) أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالَوَيْه، لغويّ، من كبار النحاة، أصله من همذان، زار اليمن وأقام بذمار مدة، وانتقل إلىٰ الشام، وعظمت بها شهرته. وعهد إليه سيف الدولة بتأديب أولاده، من أشهر كتبه ومختصر في شواذ القرآن، والحجة في القراءات السبع، توفي في حلب سنة ٣٧٠هـ. ينظر: الأعلام، للزركلي.

(٢) الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه.

(٣) أبو الفداء اسماعيل حقي بن مصطفي الإستانبولي الحنفي الخلوتي، متصوف مفسر، تركي مستعرب، ولد في آيدوس وسكن القسطنطينية وانتقل إلىٰ بروسة، وكان من أتباع الطريقة (الخلوتية)، نفي إلىٰ تكفور طاغ وأوذي، وعاد إلىٰ بروسة فمات فيها سنة ١١٢٧هـ. له كتب منها، روح البيان في تفسير القرآن، الرسالة الخليلية في التصوف.

(٤) ينظر: بتصرف روح البيان، إسماعيل حقي الإستانبولي (٥/ ٥) .

﴿بِٱلرُّوحِ﴾ فالملائكة تنزل بالروح، فما هو الروح؟ يفسر القرآن الروح المقصودة هنا بأنها القرآن الكريم إذ القرآن يفسر بعضه بعضًا، ففي قوله تعالىٰ لنبيه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾(١)، ففي الآية دلالة علىٰ أن الروح المقصود بها هنا الوحي من قرآن وسنة الذي ينزل به جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ علىٰ النبي – ﷺ –وسمّي الوحي روحًا لأنه حياة للأرواح والقلوب.

قال الألوسي:(٢) والتعبير بصيغة الاستقبال (ينزل) للإشارة إلىٰ أن التنزيل عادة مستمرة له سبحانه تعالىٰ، والمراد بالملائكة عند الجمهور جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ويسمىٰ الواحد بالجمع إذا كان رئيسا، وقيل جبريل ومن معه من حفظة الوحي(٣).

وقال ابن كثير(٤) قوله تعالىٰ (بالروح) أي: الوحي. وقوله: {علىٰ من يشاء من عباده} وهم الأنبياء. وقوله: (أن أنذروا) أي: لينذروا قوله: (فاتقون) أي: فاتقوا

---

(١) سورة الشورىٰ، الآية(٥٢).

(٢) أبو الثناء شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، فقيه ومفسر ومحدث، ولد في بغداد سنة١٢١٧هـ، وتلقىٰ العلوم علىٰ شيوخ عصره، ذكيًا فطنًا لا يكاد ينسىٰ شيئًا سمعه، اشتغل بالتأليف والتدريس في سن مبكرة، فذاع صيته وكثر تلاميذه، له عدة كتب قيِّمة، أبرزها روح المعاني الذي استغرق تأليفه خمس عشرة سنة، ويُعدُّ هذا التفسير موسوعة جمع فيه الألوسي خلاصة علم المتقدمين في التفسير، توفي ودفن ببغداد سنة ١٢٧٠هـ.

(٣) ينظر: تفسير الألوسي (٧/ ٣٣٧).

(٤) عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي صاحب التفسير المشهور والمعروف بتفسير ابن كثير ولد بالبصرة، ٧٠٠هـ، ثم رحل إلىٰ دمشق مع أخيه بعد وفاة أبيه، سمع من علماء دمشق وأخذ عنهم مثل الآمدي وابن تيمية الذي كانت تربطه به علاقة خاصة، وكان إمامًا في التفسير والحديث والتاريخ، ترك مؤلفات كثيرة قيمة. أبرزها البداية والنهاية في التاريخ، وكتاب تفسير القرآن العظيم، توفي سنة ٧٧٤هـ، ودفن في دمشق.

عقوبتي لمن خالف أمري وعبد غيري[١].

✍ **ويقول الشيخ الشعراوي**[٢] «قوله {ينزل} الكلمة توحي وتوضح أن هناك علوّا يمكن أن ينزل منه شيء علىٰ أسفل، والمعنىٰ: أقبلوا لتسمعوا مني التكليف الذي نزل لكم ممن هو أعلىٰ منكم، ولا تظلوا في حضيض الأرض وتشريعاتها»[٣]

✍ **قال البيضاوي**[٤]: «ينزل الملائكة بالروح» بالوحي أو القرآن فإنه يحيي به القلوب الميتة بالجهل أو يقوم في الدين مقام الروح في الجسد وذكره عقيب ذلك إشارة إلىٰ الطريق الذي به علم الرسول ﷺ ما تحقق موعدهم به لاستبعادهم اختصاصه بالعلم به، «من أمره» بأمره أو من أجله «علىٰ من يشاء من عباده» أن يتخذه رسولا «أن أنذروا» بأن أنذروا أي اعلموا من نذرت بكذا إذا علمته «أنه لا إله إلا أنا فاتقون» أن الشأن «لا إله إلا أنا فاتقون» أو خوفوا أهل الكفر والمعاصي بأنه «لا إله إلا أنا» وقوله «فاتقون» رجوع إلىٰ مخاطبتهم بما هو المقصود و «أن» مفسرة لأن الروح بمعنىٰ الوحي الدال علىٰ القول أو مصدرية في موضع الجر بدلا من الروح أو النصب بنزع الخافض، أو مخففة من الثقيلة والآية تدل علىٰ أن نزول

---

(١) تفسير ابن كثير، (٤/ ٥٥٦).

(٢) محمد متولي الشعراوي، العالم المفسِّر، من أبرز علماء عصره، وأحد دعائم الفكر الإسلامي الحديث بمصر، ولد في مركز ميت غمر بمحافظة الدقهلية بمصر، سنة ١٣٢٩هـ-١٩١١م، حصل علىٰ الشهادة العالمية من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر، أعير للمملكة العربية السعودية، عين وزيرًا للأوقاف وشؤون الأزهر في عهد الرئيس أنور السادات. توفي سنة ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

(٣) تفسير الشعراوي، (١٣/ ٧٨٠٠).

(٤) أبو الخير ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي، ولد في مدينة البيضاء قرب شيراز، كان صالحًا متعبدًا، أثنىٰ العلماء عليه وعلىٰ مؤلفاته، وأبرزها المنهاج الوجيز في أصول الفقه، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل، لخصه من تفسيري الزمخشري والرازي، توفي في تبريز، سنة ٦٩١هـ.

الوحي بواسطة الملائكة وأن حاصله التنبيه علىٰ التوحيد الذي هو منتهىٰ كمال القوة العلمية، وبيان أن النبوة عطاءيه والآيات التي بعدها دليل علىٰ وحدانيته من حيث إنها تدل علىٰ أنه تعالىٰ هو الموجد لأصول العالم وفروعه علىٰ وفق الحكمة والمصلحة)(١).

✍ **لذا قال الإمام أبو السعود**(٢) «يُنَزِّلُ الملائكة» بيانٌ لتحتم التوحيدِ حسبما نُبِّه عليه تنبيهًا إجماليًا ببيان تقدّس جنابِ الكبرياءِ وتعاليه عن أن يحوم حوله شائبة أن يشاركه شيءٌ في شيء، وإيذانٌ بأنه دينٌ أجمع عليه جمهور الأنبياءِ عليهم الصلاة والسلام وأُمروا بدعوة الناسِ إليه، مع الإشارة إلىٰ سر البعثة والتشريع وكيفية إلقاء الوحي، والتنبيه علىٰ طريق علمِ الرسول ﷺ بإتيان ما أوعدهم به وباقترابه إزاحة لاستبعادهم اختصاصَه عليه الصلاة والسلام بذلك، وإظهارًا لبُطلان رأيهم في الاستعجال والتكذيب، وإيثارُ صيغةِ الاستقبال للإشعار بأن ذلك عادة مستمرة له سبحانه، والمراد بالملائكة إما جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، كما قال الواحدي(٣): يسمَّىٰ الواحد بالجمع إذا كان رئيسًا أو هو ومَن معه من حفَظَة الوحي بأمر الله تعالىٰ، وقرئ يُنْزِل من الإنزال وتَنَزَّلُ بحذف إحدىٰ التاءين وعلىٰ صيغة المبني للمفعول من التنزيل «بالروح» أي بالوحي الذي من جملته القرآنُ علىٰ نهج الاستعارةِ، فإنه

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، (١/ ٣٨٤).

(٢) أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفي العمادي الحنفي، ولد في إحدىٰ ضواحي القسطنطينية ٨٩٨هـ، في بيت علم وفضل، تلقىٰ العلوم علىٰ يد نخبة من علماء عصره، ومنهم والده. أهم كتبه إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم، كشف فيه عن مزايا القرآن اللغوية العقلية، توفي سنة ٩٨٢هـ ودفن إلىٰ جوار قبر الصحابي أبي أيوب الأنصاري.

(٣) أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي. تصدر للتدريس مدة وعظم شأنه. من تصانيفه: البسيط في التفسير، أسباب النزول، توفي بنيسابور سنة٤٦٨هـ.

يحيي القلوب الميتة بالجهل، أو يقوم في الدين مقام الروح في الجسد، والباء متعلقة بالفعل أو بما هو حالٌ من مفعوله أي ملتبسين بالروح «مِنْ أَمْرِهِ» بيان للروح الذي أريد به الوحي، فإنه أمرٌ بالخير أو حال منه أي حال كونه ناشئًا ومبتدأً منه، أو صفةٌ له علىٰ رأي من جوّز حذف الموصول مع بعضِ صلته أي بالروح الكائن من أمره الناشئ منه، أو متعلقٌ بينزّل ومِن للسببية كالباء مثلُ «ما» في قوله تعالىٰ: «مّمَّا خطيئاتهم» أي ينزلهم بأمره «علىٰ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ» أي ينزِّلَهم به عليهم لاختصاصهم بصفات تؤهّلهم لذلك «أَنْ أَنْذِرُواْ» بدلٌ من الروح، أي ينزّلهم ملتبسين بأن أنذِروا أي بهذا القول، والمخاطَبون به الأنبياءُ الذين نزلت الملائكةُ عليهم، والآمرُ هو الله سبحانه والملائكةُ نَقَلةٌ للأمر كما يُشعر به الباء في المبدَل منه، و «أنْ» إما مخففةٌ من أنّ وضميرُ الشأن الذي هو اسمُها محذوفٌ، أي ينزلهم ملتبسين بأن الشأنَ أقول لكم أنذِروا، أو مفسّرةٌ علىٰ أن تنزيلَ الملائكة بالوحي فيه معنىٰ القول، كأنه قيل: يقول بواسطة الملائكةِ لمن يشاء من عباده أنذروا فلا محل لها من الإعراب، أو مصدرية لجواز كون صلتِها إنشائيةً كما في قوله تعالىٰ: «وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ»، والإنذارُ الإعلام خلا أنه مختصٌّ بإعلام المحذورِ من نذر بالشيء إذا علمه فحذِرَه، وأنذره بالأمر إنذارًا أي أعلمه وحذره وخوفه في إبلاغه، أي أعلِموا الناس «أَنَّهُ لا إله إِلا أَنَاْ» وفائدةُ تصديرِ الجملة به الإيذانُ من أول الأمر بفخامة مضمونِها مع ما فيه من زيادة تقريرٍ له في الذهن، فإن الضميرَ لا يفهم منه ابتداءً إلا شأنٌ مبهمٌ له خطر، فيبقىٰ الذهنُ مترقبًا لما يعقُبه مترقبًا فيتمكن لديه عند وروده فضلُ تمكن، كأنه قيل: أنذروا أن الشأنَ الخطير هذا، وإنباءُ مضمونِه عن المحذور ليس لذاته بل من حيث اتصافُ المنذَرين بما يضادُّه من الإشراك وذلك كافٍ في كون إعلامِه إنذارًا، وقوله: «فاتقون» خطابٌ للمستعجِلين علىٰ طريقة الالتفاتِ، والفاءُ فصيحةٌ أي إذا كان الأمر كما ذكر من جريان عادتِه تعالىٰ بتنزيل الملائكةِ علىٰ الأنبياء عليهم السلام وأمرِهم بأن ينذِروا الناسِ أنه لا شريك له في الألوهية، فاتقون في الإخلال بمضمونه ومباشرةِ ما ينافيه من الإشراك وفروعِه التي من

جملتها الاستعجالُ والاستهزاءُ، فانظر كيف خاطب الله تعالىٰ المستعجلين علىٰ طريقة الالتفات التي لها وقعها في النفس ومستقر في القلب.

❐ ثانيًا: موضع الالتفات عن الغيبة للخطاب في الآية الكريمة:

ورد الالتفات في قوله تعالىٰ: «فَٱتَّقُونِ» حيث عدل عن صيغة الغيبة في قوله تعالىٰ: « يُنَزِّلُ»، وقد جاء الالتفات لعلةٍ يقتضيها السياق. «أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون» وهو تحذيره من عبادة الأوثان ولذلك جاء الإنذار، لأن أصله التحذير مما يخاف منه ودل علىٰ ذلك قوله «فاتقون».

المتأمل في الآية يجد أن السبب في الالتفات هو التخويف والتحذير، التحذير مما يخاف الإنسان ويحذر منه، لأن الخطاب إنما جاء من الغيبة للخطاب، فخوطب المتلقي بالتخويف والتحذير ليحذر، لذا قال سبحانه «فاتقون» أي الزموا التقوىٰ أو زد في تقواك لله عَزَّوَجَلَّ، وهذا التنوع في الأسلوب هو سبب حضور ذهن المخاطب.

❐ ثالثًا: الخلاصة في بيان الالتفات:

لقد ذكر العلماء في الالتفات من الغيبة إلىٰ الخطاب، فقد ذكر الشوكاني (العلة في الالتفات فقال: «أقول لكم أنذروا، أي: أعلموا الناس أنه لا إله إلا أنا أي: مروهم بتوحيدي وأعلموهم ذلك مع تخويفهم لأن في الإنذار تخويفا وتهديدا، والضمير في أنه للشأن فاتقون الخطاب للمستعجلين وذلك علىٰ طريق الالتفات، وهو تحذير لهم من الشرك بالله»(١) فالأمر بالإنذار مع التخويف مأمور به، أي أعلموهم أنه لا إله إلا الله مع تخويفهم لأن في الإنذار تخويفا وتهديدا، والضمير في أنه للشأن.

ولو تدبرنا قوله تعالىٰ: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ

(١) ينظر: فتح القدير، للشوكاني، (٣/ ١٧٧).

﴿أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ نجد أنّ النص جاء بأسلوب الغيبة ثم تغير أسلوب الأمر بالتقوىٰ فجاء بأسلوب الخطاب «فاتقون»، ودلالة هذا الالتفات من الغيبة إلىٰ الخطاب هو إظهار وإبراز أهمية تقوىٰ الله؛ حيث إنزال الملائكة وبعث الرسل كل هذا لأجل أن نتقي ربنا، فلا نشرك به شيئا من خلقه ولا نعصه أبدا، لذلك تغير الأسلوب في سياق الآية؛ ودلالات أسلوب الالتفات من الغيبة إلىٰ الخطاب هنا إعلاء شأن موضوع الخطاب لأن إنزال الملائكة وبعث الرسل وإنزال الكتب كل ذلك لأجل أن نتقي الله عَزَّوَجَلَّ في كل ما نأتي وما نذر.

وعليه ومن خلال العرض السابق لآراء العلماء، يظهر أن السر البلاغي في الالتفات في الآية الكريمة عن الغيبة إلىٰ الخطاب هو لتخويف والتحذير من الشرك بالله، وإبراز أهمية تقوىٰ الله جلا وعلا.

النموذج الثاني: في الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب

قال تعالىٰ: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾(١).

أولا: تفسير الآية الكريمة موضع الالتفات والقراءات الواردة فيها.

القراءات:

قوله تعالىٰ: ﴿ فتمتعوا ﴾: الجمهور علىٰ أنه أمر. ويقرأ بالياء، وهو معطوف علىٰ يكفروا. ثم رجع إلىٰ الخطاب، فقال: «فسوف تعلمون» وقرئ بالياء(٢).

«وليتمتعوا» من قوله تعالىٰ: قرأ «قالون، وابن كثير، وحمزة، والكسائي، وخلف العاشر» «وليتمتعوا» بإسكان اللام، علىٰ أنها لام الأمر، وفي الكلام معنىٰ التهديد والوعيد. وقرأ الباقون بكسر اللام، علىٰ أنها لام كي.

وقرأ أبو العالية، ورواها مكحول عن أبي رافع مولىٰ رسول الله ﷺ «فيُمْتَعوا» بضم الياء من تحت، ساكن الميم، مفتوح الياء مضارع «متع» مبنيا للمفعول، «فسوف يعلمون» بالياء من تحت أيضا، وهذا المضارع في هذه القراءة، يجوز أن يكون حذف منه النون؛ إما للنصب عطفا علىٰ «ليكفروا» أو للصيرورة، ولكن علىٰ جواب الأمر إن كانت اللام للأمر، ويجوز أن يكون حذفها للجزم؛ عطفا علىٰ «ليكفروا» وإن كانت للأمر أيضا. و{الضر} القحط، أو الفقر {تجأرون} تضرعون بالدعاء، أو تضجون وهو الصياح من جؤار الثور وهو صياحه(٣).

---

(١) سورة النحل، الآية، (٥٥).

(٢) ينظر التبيان، العكبري (٢/ ٧٩٨). القراءات وأثرها في علوم العربية (٢/ ١٦٥).

(٣) اللباب، سراج الدين الحنبلي (١٢/ ٨٤). تفسير العز بن عبد السلام (٢/ ١٩٤).

◙ المفردات:

«ليكفروا بما آتيناهم» من نعمة الكشف عنهم كأنهم قصدوا بشركهم كفران النعمة، أو إنكار كونها من الله تعالىٰ. ﴿ فتمتعوا ﴾ أمر تهديد. «فسوف تعلمون» أغلظ وعيده، وقرئ فيمتعوا مبنيا للمفعول عطفا علىٰ ليكفروا، وعلىٰ هذا جاز أن تكون اللام لام الأمر الوارد للتهديد والفاء للجواب(١).

✍ **قال الفراء**(٢) «ما» بمعنىٰ الجزاء. والباء في «بكم» متعلقة بفعل مضمر، تقديره: وما يكن بكم «من نعمة» أي صحة جسم وسعة رزق وولد فمن الله(٣).

واللام في ليكفروا، قد تكون للتعليل فيكون المعنىٰ: أن إشراكهم بالله سببه كفرهم به، أي جحودهم أو كفران نعمته، وبما آتيناهم من النعم، أو من كشف الضر، أو من القرآن المنزل إليهم. وقد تكون للصيرورة فيكون المعنىٰ: صار أمرهم ليكفروا، أو إلىٰ الكفر الذي هو جحوده والشرك به. وإن كانت للأمر فمعناه التهديد والوعيد(٤).

واعلم أن المراد بقوله ﴿ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ ﴾ إما أنه عبارة عن كشف الضر وإزالة المكروه.

أو المراد به القرآن وما جاء به محمد ﷺ من النبوة والشرائع. واعلم أنه تعالىٰ توعدهم بعد ذلك فقال: ﴿ فتمتعوا ﴾ وهذا لفظ أمر، والمراد منه التهديد(٥).

---

(١) تفسير البيضاوي، (٣/ ٢٣٠).

(٢) يحيىٰ بن زياد بن عبد الله بن منظور الأسلمي الكوفي الفراء، أخذ عن أبي الحسن الكسائي، وكان فقيها عالما بالخلاف وبأيام العرب عارفا بالطب والنجوم، قيل عنه: الفراء أمير المؤمنين في النحو، من كتبه معاني القرآن، الوقف والابتداء، وغيرهما توفي سنة ٢٠٧هـ.

(٣) تفسير القرطبي (١٠/ ١١٤).

(٤) ينظر: البحر المحيط، أبو حيان (٦/ ٥٤٦).

(٥) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، (٢٠/ ٢٢٣)،.

المعنى العام:

بينت الآية الكريمة جحود الكافرين نعم الله عليهم، وشرك المشركين بالله في كشف ذلك الضر عنهم، وغرضهم من ذلك الإشراك أن ينكروا كون ذلك الإنعام من الله تعالىٰ. والكفر هنا يحتمل أن يريد به كفر النعم لقوله: بما آتيناهم، أو كفر الجحود والشرك لقوله: بربهم يشركون فَتَمَتَّعُوا يريد التمتع في الدنيا، وذلك أمر علىٰ وجه التهديد(١).

قال القرطبي رحمه في تفسير الآية الكريمة: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ أي ليجحدوا نعمة الله التي أنعم بها عليهم من كشف الضر والبلاء، أي أشركوا ليجحدوا، فاللام لام كَي. وقيل لام العاقبة. وقيل: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ أي ليجعلوا النعمة سببًا للكفر، وكل هذا فعل خبيث. «فَتَمَتَّعُواْ» أمر تهديد، وقرأ عبد الله «قل تمتعوا» «فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ» أي عاقبة أمركم. وقرئ فيمتعوا مبنيا للمفعول عطفا علىٰ ليكفروا، وعلىٰ هذا جاز أن تكون اللام لام الأمر الوارد للتهديد والفاء للجواب (٢).

ثانيًا: موضع الالتفات من الغيبة للخطاب في الآية الكريمة:

ورد الالتفات في الآية الكريمة في قوله تعالىٰ:(فَتَمَتَّعُواْ) حيث عدل عن الغيبة في قوله تعالىٰ: (فَتَمَتَّعُواْ) إلىٰ الخطاب، وكان مقتضىٰ الظاهر أن يقال : (فيتمتعوا)، لملائمة السياق. فنقل الكلام من أسلوب إلىٰ أسلوب آخر تطريةً واستدرارًا لجذب انتباه السامع، وتجديدًا لنشاطه، فالكلام يحسن عندما ينتقل به من أسلوب لآخر، ومن حالة إلىٰ أخرىٰ.

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الكلبيّ (١/ ٤٢٩).

(٢) ينظر تفسير البيضاوي (٣/ ٢٣٠).

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ من نعمة الكشف عنهم، كأنهم جعلوا غرضهم في الشرك كفران النعمة ﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾. وقرئ: «فيُمَتَّعوا»، بالياء مبنيا للمفعول، عطفا علىٰ «لِيَكْفُرُواْ» ويجوز أن يكون ليكفروا فيمتعوا، يجوز أن يكون الخطاب في قوله وما بكم من نعمة فمن الله عاما، ويريد بالفريق: فريق الكفرة وأن يكون الخطاب للمشركين ومنكم للبيان، لا للتبعيض، كأنه قال فإذا فريق كافر، وهم أنتم. ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر، كقوله فلما نجاهم إلىٰ البر فمنهم مقتصد، ليكفروا بما آتيناهم من نعمة الكشف عنهم، من الأمر الوارد في معنىٰ الخذلان والتخلية، واللام لام الأمر(١). فالالتفات هنا من الغيبة إلىٰ الخطاب كما وضح الزمخشري في كشافه، وسبب الشرك هو كفران النعمة فلتتمتعوا إذن بالعذاب الذي ترونه بأعينكم وتحسونه بأجسادكم.

وعلىٰ هذا الالتفات يكون المعنىٰ «ليكفروا» أي يوقعوا التغطية لأدلة التوحيد التي دلتهم عليها غرائز عقولهم «بما ءاتينهم» من النعمة، تنبيهًا علىٰ أنهم ما أقدموا علىٰ ذلك الشرك إلا لهذا الغرض، وإحلالًا لهم محل العقلاء البصراء الذين يزعمون أنهم أعلاهم، ولا خزي أعظم من هذا، لأنه أنتج أن الجنون خير من عقل يكون هذا مآله، فهو من باب التهكم {فتمتعوا فسوف} أي فإن تمتعكم علىٰ هذا الحال سبب لأن يقال لكم تهديدًا. سوف {تعلمون} عاقبة تمتعكم، فهو إقبال الغضب والتهديد بسوء المنقلَب، وحذفُ المتهدد به أبلغ وأهول لذهاب النفس في تعيينه كل مذهب(٢).

❐ رابعًا: الخلاصة في بيان الالتفات.

سبب الالتفات هو تغليظ الوعيد، فلام الأمر الغرض منها التهديد والوعيد.

---

(١) ينظر تفسير الزمخشري، (٢/ ٦١١).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي (١١/ ١٨١).

ومخاطبتهم بأمرهم بالتمتع أمر إمهال وقلة اكتراث بهم وهو في معنىٰ التخلية، والتمتع: الانتفاع بالمتاع. والمتاع الشيء الذي ينتفع به انتفاعا محبوبا، ويقال: تمتع بكذا واستمتع به، والخطاب للفريق الذين يشركون بربهم علىٰ طريقة الالتفات(١).

وقال أبو السعود موضحا الغرض من الالتفات: «فَتَمَتَّعُواْ» أمرُ تهديد والالتفات إلىٰ الخطابِ للإيذانِ بتناهي السخط وقرئ بالياء مبنيًا للمفعول عطفًا علىٰ ليكفروا وبذلك يكون كفرانُ النعمة والتمتعُ غرضًا لهم من الإشراك. ويجوز أن يكون اللامُ لام الأمرِ الواردِ للتهديد»(٢) وضح الامام أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ أن سبب الالتفات كفران النعمة والتهديد والوعيد الوارد في الآية الكريمة، وإلىٰ هذا ذهب الألوسي(٣) رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ.

كما صرح الشوكاني، بأن الالتفات في الآية للتهديد والترهيب فقال: «ثم قال سبحانه علىٰ سبيل التهديد والترهيب ملتفتا من الغيبة إلىٰ الخطاب فتمتعوا بما أنتم فيه من ذلك. فسوف تعلمون عاقبة أمركم وما يحل بكم في هذه الدار وما تصيرون إليه في الدار الآخرة» فظهر من كلام الشوكاني الالتفات في الآية للتهديد والترهيب.

✍ **وقال ابن عاشور**: «والخطاب للفريق الذين يشركون بربهم علىٰ طريقة الالتفات. والأظهر أنه مقول لقول محذوف. لأنه جاء مفرعا علىٰ كلام خوطب به الناس كلهم كما تقدم، فيكون المفرع من تمام ما تفرع عليه. وذلك ينافي الالتفات الذي يقتضي أن يكون مرجع الضمير إلىٰ مرجع ما قبله»(٤) فالسبب في الالتفات هو التهديد ؛ لأن أسلوب الخطاب أبلغ في التهديد، كما وضح من كلام الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ. وذلك لأن أسلوب الخطاب أبلغ في التهديد، فقال:

---

(١)التحرير والتنوير، ابن عاشور (١٤/ ١٧٩).
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود،(٥/ ١٢٠).
(٣) روح المعاني، للألوسي، بتصرف، (٧/ ٤٠٦).
(٤) التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، (١٤/ ١٧٩).

«فتمتعوا» أي بهذه الدنيا، وهذه الصيغة هي صيغة أمر (فتمتعوا)، ولكن يقصد بها التهديد والتحذير كقولك لابنك إذا أخطأ وتمادىٰ فيه افعل ما بدا لك، فأنت هنا تقولها له علىٰ سبيل التهديد وليس علىٰ سبيل الإقرار بما يفعله من خطأ، لذا قيل: لهم تمتعوا في الدنيا كما تشاؤون فالعذاب قادم وسوف تعلمون، وقع في الآية عدول من الغيبة ﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ إلىٰ الخطاب ﴿فتمتعوا فسوف تعلمون﴾؛ زيادة في التهديد؛ لأن أسلوب الخطاب أبلغ في التهديد»(١).

المتأمل في الآية يجد أن سبب الالتفات هو التهديد والوعيد، وسبب الالتفات كفران النعمة، لأنهم أنكروا كون هذه النعم من الله عَزَّوَجَلَّ، فسينزل بهم العذاب ويرونه بأعينهم.

(١) التفسير البياني، لسامي وديع عبد الفتاح (ص١١١).

النموذج الثالث: في الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب.

قال تعالىٰ: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾(١).

❑ أولا: تفسير الآية الكريمة موضع الالتفات والقراءات الواردة فيها.

◙ المعنى العام للآية:

يقول المفسرون «وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ وَيَجْعَلُونَ أي لآلهتهم ومعنىٰ لا يعلمون أنهم يسمونها آلهة ويعتقدون فيها أنها تضر وتنفع وتشفع عند الله وليس كذلك لأنها جماد لا تضر ولا تنفع، أو الضمير في لا يعلمون للآلهة أي لأشياء غير موصوفة بالعلم ولا تشعر، جَعَلوا لها نصيبًا في أنعامهم وزروعهم، وكانوا يجعلون لهم ذلك تقربًا إليهم «تَاللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ» تهديد ووعيد من الله لهم «لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ»(٢). والمراد من الآية الكريمة أن الكفار يعتقدون في الالهة أنها تضر وتنفع وتشفع عند الله تعالىٰ وهي ليست كذلك، فهي لا تنفع نفسها فضلا عن أن تنفع غيرها.

ويجعلون ويسندون نعمنا وإنعامنا عليهم لما لا يعلمون لهذه الآلهة التي لا تنفع ولا تضر نفسها ولا غيرها، ألا يفهم أولئك الحمقىٰ من الكفار الذين يجعلون لآلتهم العاطلة التي هم متأكدون أنها لا تعلم شيئا وهي حجارة نحتوها بأيديهم، ألا يفهمون منها حصول الفائدة لهم وجلب النفع إليهم أصلا، إذ كيف تنفع أو تضر وهي جمادات صنعوها من الحجارة وغيرها بأيديهم، كيف يجعلون لها نصيبا وحظا، مما رزقناهم وأنعمنا عليهم «جهلًا وعنادًا ومع ذلك تخيلوا أنهم لا يسألون عنه ولا يؤاخذون عليه بل يثابون به علىٰ زعمهم الفاسد ورأيهم الكاسد، تالله

---

(١) سورة النحل، الآية، (٥٦).

(٢) تفسير النسفي، (٢/ ٢١٧).

لتسئلن أيها المسرفون المفسدون عما كنتم تفترون علينا بإثبات الشركاء إيانا واسناد نعمنا إليهم(١).

أي يجعلون لما لا يعلمون- وهي أصنامهم التي ليس لها استحقاق العلم- نصيبا من أرزاقهم فيقولون هذا لهم وهذا لشركائنا(٢).

✍ **قال السعدي**(٣) رَحِمَهُ ٱللَّهُ «يخبر تعالىٰ عن جهل المشركين وظلمهم وافترائهم علىٰ الله الكذب، وأنهم يجعلون لأصنامهم التي لا تعلم ولا تنفع ولا تضر نصيبا مما رزقهم الله وأنعم به عليهم، فاستعانوا برزقه علىٰ الشرك به، وتقربوا به إلىٰ أصنام منحوتة»(٤).

«ويجعلون لما لا يعلمون في طاعته نفعا ولا في الإعراض عنه ضرا».

✍ **وقال مجاهد**: يعلمون أن الله خلقهم ويضرهم وينفعهم ثم يجعلون لما لا يعلمون أنه يضرهم نَصِيبًا أو ويجعلون لما لا يعلمون إلاهيتها، أو السبب في صيرورتها معبودة(٥).

ويحتمل أن يعود ضمير في «لا يعلمون» الىٰ الأصنام وصيغة جمع العقلاء لكون «ما» عبارة عن آلهتهم التي وصفوها بصفات العقلاء أي الأشياء التي غير

---

(١) الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية، نعمة الله بن محمود النخجواني (١/ ٤٢٩).

(٢) لطائف الإشارات، القشيري (٢/ ٣٠٢).

(٣) عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي التميمي: مفسر، من علماء الحنابلة، من أهل نجد ولد في عنيزة (بالقصيم) سنة١٣٠٧هـ. وهو أول من أنشأ مكتبة فيها، له نحو ٣٠ كتابا، مات والده ولم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، من تلاميذه ومنهم الشيخ ابن عثيمين وابن باز وغيرهما أبرز كتبه تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، وكتبه قيِّمة محققة تخلو من الدخيل والغرائب، توفي سنة ١٣٧٦هـ. ينظر الأعلام للزركلي (٣/ ٣٤٠).

(٤) تفسير السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٤٢).

(٥) تفسير النيسابوري(٤/ ٢٧٠).

موصوفة بالعلم ولا تشعر جعلوا لها نصيبا وحظا في أنعامهم وزروعهم لذا جاء الرد من الله تعالىٰ عليهم «تالله لتسئلن» سؤال توبيخ وتقريع، أوَ تظنون أنكم لا تُسئلون «عما كنتم تفترون» وتكذبون في الدنيا بأنها آلهة حقيقة وأنتم أكثر الناس معرفة بهذه الآلهة أنها لا تنفع ولا تضر فأنتم من صنعها بأيديهم، ثم تتقربون إليها «وفيه إشارة إلىٰ أن أصحاب النفوس والأهواء يجعلون مما رزقهم الله من الطاعات نصيبا بالرياء لمن لا علم لهم بأحوالهم ليحسنوا في حقهم ظنا ويكتسبوا عندهم منزلة وهم غافلون فارغون عن توهمهم وافترائهم في نفوسهم عليهم(١).

✍ **قال الواحدي** - رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ- «وَيَجْعَلُونَ وَيَجْعَلُونَ يعني المشركين «لِمَا لَا يَعْلَمُونَ» أي الأوثان التي لا علم لها «نصيبا مما رزقناهم» يعني ما ذكر في قوله «وهذا لشركائنا في سورة الأنعام «تالله لتسألن» سؤال توبيخ «عما كنتم تفترون» علىٰ الله من أنه أمركم بذلك»(٢). ومن هنا تبين الآية أن السؤال هنا سؤال توبيخ لطلبهم من الأوثان التي لا تسمع ولا تضر.

❐ ثانيًا: موضع الالتفات من الغيبة للخطاب في الآية الكريمة:

جاء الالتفات في قوله تعالىٰ: «تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ» بصيغة الخطاب حيث عدل عن صيغة الغيبة في قوله تعالىٰ: «وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ»، ومقتضىٰ الظاهر أن يقال: (ليسألن) لملائمة السياق أن يكون الأسلوب كله يتحدث بالغَيْبة لا يخرج عنه للخطاب.

✍ **قال مجاهد**: يعلمون أن الله خلقهم ويضرهم وينفعهم، ثم يجعلون لما لا يعلمون إنه يضرهم وينفعهم نصيبًا مما رزقناهم.

---

(١) ينظر بتصرف روح البيان، إسماعيل حقي الإستانبولي (٥/ ٤٣).
(٢) تفسير الواحدي، (١/ ٦٠٩).

✍ **وقال قتادة**: هم مشركو العرب جعلوا لأوثانهم وشياطينهم مما رزقهم الله جزءًا من أموالهم جزءًا فجعلوه لهم، «تالله لتسألن» أقسم بنفسه علىٰ نفسه أنه يسألهم يوم القيامة، وهذا رجوع من الغيبة إلىٰ الخطاب، وهو من بديع الكلام وبليغه، وهذا السؤال سؤال تقريع وتوبيخ «عما كنتم تفترون» أي تختلقونه من الكذب علىٰ الله سبحانه في الدنيا(١).

قوله: «لما لا يعلمون» أي الكفار، أي: لما يعلم، ومعنىٰ «لا يعلمون» أنهم يسمونها آلهة، ويعتقدون أنها تضر وتنفع وتشفع؛ وليس الأمر كذلك، ويجوز أن تكون للآلهة، وهي الأصنام، أي: الأشياء غير موصوفة بالعلم، لأن نفي العلم عن الحي حقيقة، وعن الجماد مجاز، وأيضا: الضمير في «ويجعلون» عائد علىٰ المشركين، فكذلك في قوله ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ ﴾، وأيضًا قوله: ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ جمع بالواو والنون؛ وهو بالعقلاء أليق منه بالأصنام(٢).

✍ **قال البيضاوي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ » أي لآلهتهم التي لا علم لها لأنها جماد فيكون الضمير «لِمَا» أو التي لا يعلمونها فيعتقدون فيها جهالات مثل أنها تنفعهم و تشفع لهم علىٰ أن العائد إلىٰ ما محذوف، أو لجعلهم علىٰ أن ما مصدرية والمجعول له محذوف للعلم به «نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ » من الزروع و الأنعام ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ من أنها آلهة حقيقية بالتقرب إليها و هو وعيد لهم عليه (٣).

إن هؤلاء الكفار يجعلون نصيبًا مما رزقهم الله إياه من النِّعم للأصنام التي يعلم

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق خان القِنَّوجي (٧/ ٢٦٠).

(٢) ينظر اللباب في علوم الكتاب (١٢/ ٨٥)، الهداية الىٰ بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب (٦/ ٤٠١٥).

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، (٣/ ٢٣٠).

الكفار أنها لا تنفع ولا تضر والمتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب الالتفات هو قصد التهديد والوعيد الشديد للكافرين الذين جعلوا للأصنام التي لا تنفع ولا تضر نصيبا من نعم الله وأشركوا مع الله هذه الالهة.

❐ ثالثًا: الخلاصة في بيان الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب:

يتضح جليا أن سبب الالتفات هو التهديد للكفار «حيث جاء الالتفات من أسلوب الغيبة ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ إلىٰ أسلوب الخطاب ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾؛ لما هو معروف عن أسلوب الخطاب الذي هو أعظم في التهديد؛ لما يحمل في معناه من المواجهة وتقصير المسافة المشعرة - في مثل هذا المقام - بالخوف لمن كان له قلب»(١).

✍ **قال أبو السعود بعد أن ذكر النموذج**: «وفي تصدير الجملةِ بالقسم وصرفِ الكلامِ من الغَيْبة إلىٰ الخطاب المُنْبئ عن كمال الغضبِ من شدة الوعيد ما لا يخفي»(٢).

﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ هذا رجوع من الغيبة إلىٰ الخطاب، وهذا السؤال سؤال تقريع وتوبيخ عما كنتم تفترون تختلقونه من الكذب علىٰ الله سبحانه في الدنيا»(٣).

وما في قوله «من ما رزقناهم» موصولة والعائد محذوف وضمير الجمع للكفار أو لآلهتهم التي لا علم لها بشيء إنها جماد علىٰ أن ما موصولة أيضا عبارة عن الآلهة، وضمير يعلمون عائد عليه، ومفعول يعلمون متروك لقصد العموم، ويجوز أن ينزل منزلة اللازم أي ليس من شأنهم العلم، وصيغة جمع العقلاء لوصفهم

---

(١) التفسير البياني، سامي وديع عبد الفتاح (ص:١١٣)،.
(٢) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود،(٥/ ١٢١).
(٣) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٢٠٤).

الآلهة بصفاتهم، ويجوز أن تكون ما مصدرية وضمير الجمع للمشركين واللام تعليلية لا صلة الجعل كما في الوجهين الأولين، أي يجعلون لآلهتهم لأجل جهلهم نصيبا مما رزقناهم من الحرث والأنعام وغيرهما مما ذرأ تقربا إليها، «تالله لتسئلن» سؤال توبيخ وتقريع في الآخرة، وقيل: عند عذاب القبر، وقيل: عند القرب من الموت «عما كنتم تفترون» من قبل بأنها آلهة حقيقة بأن يتقرب إليها، وفي تصدير الجملة بالقسم وصرف الكلام من الغيبة إلىٰ الخطاب المنبئ عن كمال الغضب من شدة الوعيد ما لا يخفي(١).

وقال ابن عاشور: «ثم وجه الخطاب إليهم علىٰ طريقة الالتفات لقصد التهديد، ولا مانع من الالتفات هنا لعدم وجود فاء التفريع وتصدير جملة التهديد والوعيد بالقسم لتحقيقه، إذ السؤال الموعود به يكون يوم البعث وهم ينكرونه فناسب أن يؤكد، والقسم بالتاء يختص بما يكون المقسم عليه أمرا عجيبا ومستغربا، وعطف حالة من أحوال كفرهم لها مساس بما أنعم الله عليهم من النعمة، فهي معطوفة علىٰ جملة وما بكم من نعمة فمن الله، ويجوز أن تكون حالا من الضمير المجرور في قوله تعالىٰ: وما بكم من نعمة علىٰ طريق الالتفات، ويجوز أن تكون معطوفة علىٰ يشركون من قوله تعالىٰ: «إذا فريق منكم بربهم يشركون»، وما حكي هنا هو من تفاريع دينهم الناشئة عن إشراكهم والتي هي من تفاريع كفران نعمة ربهم، إذ جعلوا في أموالهم حقا للأصنام التي لم ترزقهم شيئا»(٢).

ومما سبق يتبين أن الغرض من الالتفات في الآية الكريمة هو قصد تهديد الكفار وتوبيخهم لتكذيبهم الأنبياء، وجَعْلِهم نصيبا للآلهة نصيبا مما أنعم الله به عليهم، كفرا وجحودا لهذه النعم وشركا بالمنعِم سبحانه وتعالىٰ.

---

(١) ينظر: تفسير الألوسي، (٧/ ٤٠٦).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، (١٤/ ١٨١).

ثانيًا: أسرار الالتفات عن ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة

النموذج الأول: في الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة

قال تعالىٰ: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾(١).

أولا: تفسير الآية موضع الالتفات والقراءات الواردة فيها.

قرأ بنقل حركة الهمزة إلىٰ الساكن قبلها ورش في قوله ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (لقدْ أرسلنا... عذاب أليم)، النقل لورش، السكت وصلا لخلف عن حمزة. والسكت والنقل والتحقيق وقفا لخلف عن حمزة. ونقل وتحقيق لخلاد، والباقون بالتحقيق وصلا ووقفا.

قرأ قالون بخلفه وابن كثير وأبو جعفر بصلة ميم الجمع في قوله ﴿ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ ﴾ (أعمالهمُ فهو.. ولهمُ عذاب). قرأ قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ﴾ فهْو بإسكان الهاء، والباقون بالضم فهُو وليهم.

تحدثت الآية الكريمة للنبي ﷺ مبدوءة بالقسم بذات الله تعالىٰ فكأنه يقول، وعزتي يا محمد لقد أرسلنا من قبلك رسلا إلىٰ أقوامهم بمثل ما أرسلناك أنت إلىٰ أمتك لدعوتهم إلىٰ توحيد الله، وإخلاص العبادة له وحده، والاستسلام والخضوع له وحده، والإذعان له بالطاعة والانقياد، وترك ما هم عليه من الشرك وخلع الأنداد والأضداد والآلهة الت تعبدونها من دونه، لكنهم أبَو ذلك ﴿ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ فما كان من الشيطان إلّا أن حسّن لهم ما كانوا عليه من الكفر بالله وعبادة

(١) سورة النحل، الآية، (٦٣).

غيره من الأصنام التي هي من صنع أنفسهم أو أنها من المخلوقات مثلهم، فكذبوا رسلي الذين أرسلتهم لهم، وردوا عليهم ما جاءوهم به من عند ربهم. ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ المقصود أن الشيطان ناصرهم اليوم في الدنيا، وهو بئس الناصر ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة عند ورودهم علىٰ ربهم وسيكون معهم في هذا العذاب الشيطان الذي أغواهم، ولن ينفعهم حينئذ ولاية الشيطان لهم، كما أنها ما نفعتهم في الدنيا، بل ضرتهم فيها.

◙ المفردات:

قوله: **تالله**: أي والله.

أرسلنا إلىٰ أمم من قبلك: أي رسلًا.

فزين لهم الشيطان أعمالهم: فكذبوا لذلك الرسل.

فهو وليهم اليوم: أي الشيطان هو وليهم اليوم أي في الدنيا.

﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: والشيطان وليهم، أي: ناصرهم اليوم في الدنيا. ولهم في الآخرة عذاب أليم. وقيل: إنه يقال لهم: هذا الذي أطعتموه فاسألوه حتىٰ يخلصكم وهذا تبكيتا وتأنيبا وتوبيخا لهم. فيكون قوله: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ إشارة إلىٰ يوم القيامة. وهذا كله تعزية للنبي ﷺ وتصبير له إذا كذبه قومه(١).

وعلاقة الآية بما قبلها: أنه سبحانه وتعالىٰ لما بين مآلهم، وكانوا يقولون إن لهم شفيعا يشفع فيهم يوم القيامة، بين لهم سبحانه ما يكون من حالهم يوم القيامة تهديدا وتوبيخا لهم علىٰ ما فعلوه من عبادة غير الله، جاءت هذه الآية تسلية للنبي ﷺ، فقال {تالله} أي الملك الأعلىٰ الذي له ملك السماوات والأرض وما فيهن. {لقد أرسلنا} أي بما لنا من العظمة والقدرة المطلقة علىٰ فعل كل شيء، أرسلنا

(١) الهداية الىٰ بلوغ النهاية (٦/ ٤٠٢٥).

رسلا من الماضين {إلىٰ أمم} من الأمم السابقة لأمتك. {من قبلك} كما أرسلناك أنت إلىٰ هذه الأمة التي هي آخر الأمم. {فزين لهم الشيطان} أي سوّل لهم شياطين الإنس والجن أعمالهم القبيحة وأشدها قبحا عبادة غير خالقهم {أعمالهم} كما زين لقومك يا محمد فضلوا كما ضلوا فأهلكناهم {فهو} الشيطان لا غيره {وليهم اليوم} يتولاهم بعد إهلاكهم ودخلوهم النار في الآخرة وهو معهم ويرونه بينهم ولا قدرة له علىٰ نصرتهم {ولهم عذاب أليم } فلا ولي له من دون الله ولا لهم كذلك. وبعد أن فند الله تعالىٰ فساد عقائد المشركين وأقوالهم، وأمهلهم العذاب، سلىٰ رسوله ﷺ عما كان يناله من أذىٰ قومه، ونسبتهم إلىٰ الله ما لا يجوز، بإخباره بإرسال الرسل إلىٰ الأمم المتقدمة، مقسما علىٰ ذلك، ومؤكدا بالقسم، وباللام في «لقد» وبـ «قد» التي تقتضي التحقيق، أرسلنا إلىٰ أمم سابقة لأمتك فزين لهم الشيطان أعمالهم، من تماديهم علىٰ الكفر، فهو وليهم اليوم، حكاية حال ماضية، أي لا ناصر لهم في حياتهم إلا الشيطان، أو أنها حكاية عن حال آتية، وهي يوم القيامة، فلا تحزن يا محمد لتكذيب قومك لك، فلست بدعا من الرسل السابقة عليك، وليس قومك منفردين بالعتو والاستكبار والتكذيب وحدهم.

وقد دلت الآية علىٰ أن سنة الله في عباده منذ القديم إرسال الرسل بالحجة الواضحة والبيان الشافي، وما محمد - ﷺ - إلا كغيره من الرسل. وشأن الأمم تكذيب المرسلين، لتأثرهم بتزيين الشيطان أعمالهم، وإغوائهم، وصرفهم عن إجابة أنبيائهم «لأنه لو قدر الشيطان علىٰ نصرهم لما أسلمهم للهلاك وقد أطاعوه في حياتهم الدنيا، بل لو عدموا ولايته كان ذلك أولىٰ لهم، فهو نفي لأن يكون لهم وليّ علىٰ أبلغ الوجوه»(١).

✍ **يقول الشيخ أبو زهرة**(٢) «أكد الله سبحانه وتعالىٰ بالقسم، وباللام وبـ قد،

---

(١) ينظر بتصرف، نظم الدرر للبقاعي (١١/ ١٨٩). التفسير المنير للزحيلي (١٤/ ١٦٣)

(٢) محمد بن أحمد أبو زهرة، من أكبر علماء الشريعة في عصره، ولد بمدينة المحلة الكبرىٰ =

وفي القسم بهذه الصيغة تشديدا، و (أرسلنا) أضاف الإرسال إليه سبحانه وتعالىٰ وليعلم أن الرسالة من الله سبحانه وتعالىٰ رب هذا الوجود، والأعلم بما يصلح الناس، وما يخاطبون به، وما يبلغون الرسالة عن طريقهم وقد جاء القسم لتأكيد المعنىٰ ووصف العذاب هنا بأنه أليم شديد مهلك، وقد وصف الله العذاب بأنه أليم، عظيم، مهين، شديد.. والعذاب شعور بالألم وإحساس به»(١).

تالله لقد أرسلنا رسلًا إلىٰ أمم مِن قبلك -أيها الرسول- فحسَّن لهم الشيطان ما عملوه من الكفر والتكذيب وعبادة غير الله، فهو متولٍّ إغواءهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب أليم موجع(٢).

الإعراب:

(تالله) جار ومجرور متعلق بفعل محذوف تقديره أقسم، (اللام) لام القسم، (قد) حرف تحقيق، (أرسلنا) فعل ماض وفاعله (إلىٰ أمم) جار ومجرور متعلق ب (أرسلنا)، (من قبلك) جار ومجرور متعلق بنعت لأمم.. و(الكاف) مضاف إليه (الفاء) عاطفة (زين) فعل ماض (اللام) حرف جر و (هم) ضمير في محل جر متعلق ب (زين)، (الشيطان) فاعل مرفوع، (أعمالهم) مفعول به منصوب.. و(هم) مضاف إليه (الفاء) عاطفة، (هو) ضمير منفصل مبني في محل رفع مبتدأ، (وليهم) خبر مرفوع.. و(هم) مضاف إليه، (اليوم) ظرف زمان منصوب متعلق بولي، (الواو)

=

سنة ١٣١٦هـ. تعلم بمدرسة القضاء الشرعي وغيرها، وتولىٰ تدريس العلوم الشرعية والعربية، ثم بدأ اتجاهه إلىٰ البحث العلمي في كلية أصول الدين، وعين أستاذًا محاضرًا للدراسات العليا في الجامعة وعضوا للمجلس الأعلىٰ للبحوث العلمية، له أكثر من ٤٠ كتابا، منها: الأحوال الشخصية، تنظيم الإسلام للمجتمع. توفي سنة ١٣٩٤هـ. ينظر الأعلام للزركلي (٦/ ٢٥).

(١) زهرة التفاسير محمد أبو زهرة (٨/ ٤٢٠٥). تفسير الشعراوي (١٣/ ٨٠٣٦).

(٢) التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير (١/ ٢٧٣).

عاطفة، (اللام) حرف جر، و(هم) ضمير في محل جر متعلق بخبر مقدم (عذاب)، مبتدأ مؤخر مرفوع (أليم) نعت لعذاب مرفوع.

وجملة: «**القسم**...» لا محل لها استئنافية.

وجملة: «**أرسلنا**...» لا محل لها جواب القسم.

وجملة: «**زين لهم الشيطان**» لا محل لها معطوفة علىٰ جملة جواب القسم.

وجملة: «**هو وليهم**...» لا محل لها معطوفة علىٰ جملة زين لهم الشيطان.

وجملة: «**لهم عذاب**...» لا محل لها معطوفة علىٰ جملة هو وليهم(١).

◙ التفسير والمعنى العام:

✍ **قال ابن عطية** – رَحِمَهُ ٱللَّهُ – «هذه آية ضرب مثل لهم بمن تقدم وفي ضمنها وعيد لهم وتأنيسٍ للنبي ﷺ، وقوله اليوم يحتمل أن يريد يوم الإخبار بهذه الآية، وهو بعد موت أولئك الأمم المذكورة، أي لا ولي لهم منذ ماتوا واحتاجوا إلىٰ الغوث إلا الشيطان، ويحتمل أن يريد يوم القيامة، والألف واللام فيه للعهد، أي «هو وليهم» في «اليوم» المشهور وهو وقت الحاجة والفصل، ويحتمل أن يريد فهو وليهم مدة حياتهم، ثم انقطعت ولايته بموتهم، وعبر عن ذلك بقوله «اليوم» تمثيلا للمخاطبين بمدة حياتهم، كما تقول لرجل شاب تحضه علىٰ طلب العلم: يا فلان لا يدرس أحد من الناس إلا اليوم، تريد في مثل سنك هذه. فكأنه قال لهؤلاء: فهو وليهم في مثل حياتكم هذه، وهي التي كانت لهم، وسائر الآية وعيد(٢).

وبعد أن بينت الآيات السابقة لهذه الآية ما وقع فيه المشركون من الجرائم العظام، تتوعد هذه الآية الكفار بالعذاب الأليم يوم القيامة، في حين أنها تسلّي النبي

---

(١) الجدول في إعراب القرآن، لمحمود الصافي (١٤/ ٣٤٤)٠

(٢) تفسير المحرر الوجيز، ابن عطية (٣/ ٤٠٤).

- ﷺ - بأن تكذيب قومه له إنما هو سنة ماضية حاضرة للكفار، لأنهم هكذا قابلوا هداية الرسل باتباع الشيطان، الذي ظنه الكفار نصيرا لهم بما زين لهم، ولكنه لم يكن لينصر نفسه ولا غيره، وأن نهاية من اتبعه العذاب الأليم.

ومن تسلية الله سبحانه لنبيّه أنْ بين له أنّ القوم ليسوا هم أول من انحرف، وليسوا أول من جدف، فقد كان قبلهم منحرفون ومجدفون، أغواهم الشيطان، وزين لهم ما انحرفوا إليه من تصورات فاسده وأعمال مخالفة ومعتقدات باطلة، فصار وليهم الذي يشرف عليهم ويصرفهم إلىٰ ما يريد، وإنما أرسل الله رسوله- ﷺ- ليستنقذهم من الشيطان، وليبين لهم الحق من الباطل، ويفصل فيما وقع بينهم من خلاف في عقائدهم وكتبهم وليكون هدىٰ ورحمة لمن يؤمنون(١).

أقسم الله تعالىٰ بنفسه لرسوله فيقول تالله يا رسولنا {لقد أرسلنا} رسلا {إلىٰ أمم من قبلك} كانوا مشركين كافرين كأمتك {فزين لهم الشيطان أعمالهم} فقاوموا رسلنا وحاربوهم وأصروا علىٰ الشرك والكفر فتولاهم الشيطان، لذلك {فهو وليهم اليوم}، أي في الدنيا {ولهم} في الآخرة {عذاب أليم}، والسياق الكريم في تسلية رسول الله - ﷺ - ولذا قال تعالىٰ في الآية الثانية: {وما أنزلنا عليك الكتاب} أي لإرهاقك وتعذيبك ولكن لأجل أن تبين للناس الذي اختلفوا فيه من التوحيد والشرك والهدىٰ والضلال. كما أنزلنا الكتاب هدىٰ يهتدىٰ به المؤمنون إلىٰ سبل سعادتهم ونجاحهم، ورحمة تحصل لهم بالعمل به عقيدة وعبادة وخلقا وأدبا وحكما، فيعيشون متراحمين تسودهم الأخوة والمحبة وتغشاهم الرحمة والسلام.

فقد بين الله تعالىٰ أن مثل هذا الصنع الذي يصدر من مشركي قريش قد صدر من سائر الأمم السابقين في حق الأنبياء المتقدمين عليهم السلام، فقال: تالله لقد

---

(١) ينظر التفسير البياني لسورة النحل، (ص: ١٢٧). في ظلال القرآن (٤/ ٢١٨٠).

أرسلنا إلىٰ أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم وهذا يجري مجرىٰ التسلية للرسول ﷺ فيما كان يناله من الغم بسبب جهالات القوم. ثم قال تعالىٰ: فهو وليهم اليوم وفيه احتمالان: الأول: أن المراد منه كفار مكة، فهو وليهم اليوم أي الشيطان يتولىٰ إغواءهم وصرفهم عنك، كما فعل بكفار الأمم قبلك فيكون علىٰ هذا التقدير رجع عن أخبار الأمم الماضية إلىٰ الإخبار عن كفار مكة. الثاني: أنه أراد باليوم يوم القيامة، يقول فهو ولي أولئك الذين كفروا يزين لهم أعمالهم يوم القيامة، وأطلق اسم اليوم علىٰ يوم القيامة لشهرة ذلك اليوم، والمقصود من قوله: فهو وليهم اليوم هو أنه لا ولي لهم ذلك اليوم ولا ناصر، وذلك لأنهم إذا عاينوا العذاب وقد نزل بالشيطان كنزوله بهم، ورأوا أنه لا مخلص له منه، كما لا مخلص لهم منه، جاز أن يوبخوا بأن يقال لهم: هذا وليكم اليوم علىٰ وجه السخرية»(١).

ومقصود الآية تذكير الله تعالىٰ للنبي - ﷺ - أنه أرسل إلىٰ الأمم الخالية رسلا فكذبت هذه الأمم رسلها، إذن لك يا محمد أسوة في إخوانك من المرسلين السابقين، فلا تيأس من تكذيب قومك لك فإنما أنت كمن سبقك من الرسل، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل، فالسبب في ذلك أن اتبَعوا أهوائهم فاستحوذ عليهم الشيطان فحملهم علىٰ هذا التكذيب، ومن ثم زين الشيطان لهم أفعالهم القبيحة من شرك بالله ومعاصي، {فهو وليهم اليوم} أي: الشيطان الذي أغواهم واتبعوه سيكون معهم وله نفس مصيرهم، فهم تحت العقوبة والنكال، والشيطان وليهم كذلك، ولا يملك لهم خلاصا كما لا يملك لنفسه ولهم عذاب أليم.

وفي القَسَم من الله سبحانه وتعالىٰ باسمه الكريم تشريف للنبي، ومداناة له، وتلطف من الحق جل وعلا معه. :أنه يقول له وحق ربك لقد أرسلنا إلىٰ أمم من قبلك رسلا مبشرين ومنذرين، فوسوس لهم الشيطان، وزين لهم ما هم فيه من

---

(١) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير للجزائري (٣/ ١٣١). تفسير مفاتيح الغيب، الرازي (٢٠/ ٢٣٠). تفسير ابن كثير (٤/ ٥٨٠).

عمىٰ وضلال وكفر وتكذيب وعناد، فلم يستجيبوا، لدعوة الحق التي دعاهم إليها الرسل، ولم يردوا علىٰ رسل الله إليهم ردا جميلا، بل أعنتوهم ومدوا إليهم ألسنتهم وأيديهم بالسوء والأذىٰ. فلا تأس علىٰ ما يصيبك من قومك، وما ترىٰ من عنادهم، وتأبّيهم علىٰ الحق الذي تدعوهم إليه، فالشيطان قرينهم، يغويهم ويتولاهم اليوم، ويقودهم كما تولىٰ الظالمين قبلهم، وقادهم إلىٰ موارد الوبال والهلاك.. والولي بمعنىٰ الناصر «ولهم عذاب أليم» أي للشيطان ولأولياء جميعا عذاب أليم في الآخرة، وهذا مبالغة في نفي نصرة الشيطان لنفسه ولهم وتهكم بهم»(١).

✍ **وقال ابن عجيبة**(٢) «تالله لقد أرسلنا رسلا إلىٰ أمم من قبلك يا محمد، فزين لهم الشيطان أعمالهم السوء، فرأوها حسنة، فأصروا علىٰ قبائحها، وكذبوا الرسل، فصبروا حتىٰ نُصروا. فاصبر كما صبروا، حتىٰ تنصر كما انتصروا. فكان عاقبة من اتبع الشيطان الهلاك والوقوع في العذاب، فهو وليهم أي: متولي أمورهم اليوم في الدنيا، ولهم عذاب أليم في الآخرة، أو: فهو وليهم يوم القيامة، علىٰ أنه حكاية حال آتية، أي: لا ولي لهم غيره في ذلك اليوم وقرينهم ناصرهم، سماه وليا لهم، لطاعتهم إياه، وهو عاجز عن نصرة نفسه، فكيف ينصر غيره؟ وما أنزلنا عليك الكتاب: القرآن إلا لتبين لهم: للناس الذي اختلفوا فيه من التوحيد، والقدر، وأحوال المعاد، وأحكام الأفعال، وهدىٰ ورحمة لقوم يؤمنون به، فإنهم المنتفعون بإنزاله. الإشارة: كل من وقف دون الوصول إلىٰ مشاهدة الحق، فهو مزين له في

---

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب (٧/ ٣١٥). محاسن التأويل القاسمي، (٦/ ٣٨٢).

(٢) أبو العباس أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني التطواني، مفسر صوفي، من أهل المغرب، ولد سنة ١١٦٠هـ. له كتب كثيرة، منها: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد في أربعة مجلدات، والفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية، توفي سنة ١٢٢٤هـ ودفن ببلدة أنجرة (بين طنجة وتطوان). الأعلام للزركلي (١/ ٢٤٥). الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة، وليد بن أحمد الزبيري (١/ ٣٨٦).

عمله، مستدرج به وهو لا يشعر، وحظه يوم القيامة الندم والأسف.

وقد نزلت هذه الآية علىٰ جهة التسلية للنبي- ﷺ - وذلك أنه أخبر أن من تقدمه من الأمم كانوا في سلوك الضلالة، والانخراط في سلك الجهالة كما كان من قومه، والله – سبحانه – لم يعجز عنهم. وكما سول الشيطان لأمته، وكان وليا لهم، فهو ولىٰ هؤلاء، وأما المؤمنون فالله وليهم، والكافرون لا مولىٰ لهم»(١).

✍ **وقال أبو السعود** - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - تعالىٰ {تالله لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلىٰ أُمَمٍ مّن قَبْلِكَ} تسليةٌ لرسول الله - ﷺ - عما يناله من جهالات الكفرةِ ووعيدٌ لهم علىٰ ذلك، أي أرسلنا إليهم رسلًا فدعَوْهم إلىٰ الحق فلم يجيبوا إلىٰ ذلك {فَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ} القبيحةَ فعكفوا عليها مُصِرّين {فَهُوَ وَلِيُّهُمُ} أي قرينُهم وبئس القرينُ هو {اليوم} أي يوم زين لهم الشيطانُ أعمالهم فيه علىٰ طريق حكايةِ الحال الآتية وهي حالُ كونهم معذبين في النار، والوليُّ بمعنىٰ الناصر أي فهو ناصرهم اليوم لا ناصرَ لهم غيرُه مبالغةً في نفي الناصرِ عنهم، ويجوز أن يكون الضميرُ عائدًا إلىٰ مشركي قريش والمعنىٰ زيّن للأمم السالفة أعمالَهم فهو وليُّ هؤلاء لأنهم منهم، وأن يكون علىٰ حذف المضافِ أي وليُّ أمثالهم {وَلَهُمْ} في الآخرة { عَذَابٌ اليمٌ } هو عذابُ النار»(٢).

❐ ثانيًا: موضع الالتفات من الغيبة إلى التكلم في الآية الكريمة:

عدل سبحانه من الغيبة في قوله ﴿ تَٱللَّهِ ﴾ إلىٰ التكلم في قوله ﴿ أَرۡسَلۡنَآ ... ﴾ بنون العظمة التي للمتكلم، وهذا أسلوب من أساليب الالتفات وهو كثير في القرآن الكريم مما يجعل السامع لا يسأم ولا يعتريه الملل.

---

(١) البحر المديد، ابن عجيبة (٣/ ١٤٠). تفسير البغوي (٥/ ٢٧). تفسير القشيري، (٢/ ٣٠٤).

(٢) تفسير أبو السعود، (٤/ ١٣٢).

(تالله) هذا قسم بالله سبحانه وتعالىٰ، والقسم أسلوب من أساليب توكيد الكلام، بل هو من أعلىٰ الأساليب، إن لم يكن أعلاها. (تالله) المقسِم في الآية هو الله سبحانه وتعالىٰ، وأي مقسِم أعظم منه؟! وأي مقسِم هو أصدق منه؟! والمقسَم به هو لفظ الجلالة الذي لا شيء في الوجود أعظم منه ولا أكرم. وعِظم القسم يدل علىٰ عظم المقسم عليه، ألا ترىٰ أنه لا يقبل من الواحد منا أن يقسم بالأيمان علىٰ شيء تافه. (تالله) التاء حرف من حروف القسم، ولا تدخل إلا علىٰ لفظ الجلالة، بينما تدخل الواو علىٰ الاسم الظاهر دون أن تختص بلفظ الجلالة، فنقول: «والله، وَٱلطُّورِ »(١). ودل ذكر لفظ (من قبلك) في السياق علىٰ أن المخاطب بداية بالقسم (تالله) هو النبي ﷺ، ولو نظرنا في سياق الكلام وتأملنا لعلمنا أن مجيء الخطاب إنما هو تسلية للنبي وإلا فإنه - ﷺ - ليس شاكا حتىٰ يحتاج إلىٰ القسم، وإنما القسم هنا زيادة في تسليته عليه الصلاة والسلام وتأكيدا علىٰ أنه مثل إخوانه من الأنبياء السابقين.

«ولكن هل يختص الخطاب بالنبي - ﷺ - إذا كان مخاطبا به لأجل تسليته فقط؟ الجواب: لا؛ لأن القرآن كتاب هداية لكل الناس، فالنبي - ﷺ - مخاطب به بداية ثم كل المكلفين من الجن والإنس، فالآية تسلية لكل من دعا إلىٰ دين الله وكذبه الناس.

وليس المقصود بالقسم هو الإخبار بأن الله سبحانه وتعالىٰ أرسل رسلا من قبل النبي ﷺ وفقط، بل المقصود أنه أرسل رسلا إلىٰ الأمم السابقة وبعضهم كذبهم أقوامهم، وكأنه يقول يا محمد! ما يفعله قومك من اتباع الشيطان، هو ما فعله كل المكذبين في الأمم السابقة، فلا تحزن يا محمد، ولا تكن في ضيق مما يعمل هؤلاء المكذبون(٢).

---

(١) سورة الطور، الآية، (١).

(٢) التفسير البياني (ص: ١٢٧).

جاء الالتفات في قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ بصيغة التكلم إذ عدل - جل وعلا - عن صيغة الغيبة في قوله تعالىٰ: ﴿تَٱللَّهِ﴾، ومقتضىٰ الظاهر أن يقال:(لَقَدْ أَرْسَلَ)، ليوافق ما قبله في سياق الآيات، لسبب بلاغي عظيم وهو شرف المرسلين لشرف مَن أرسلهم – سبحانه-.

قوله «وليهم اليوم» أي في الدنيا التي هم فيها لأن اليوم المعروف معروف في زمان الحال كالآن، وصدر بصورة الحال ليستحضر السامع تلك الصورة العجيبة ويتعجب منها، ويسمىٰ مثل هذا حكاية الحال الماضية، وهو استعارة من الحضور الخارجي إلىٰ الحضور الزمني، والمراد به مدة الدنيا، لأنها كلها كالوقت الحاضر بالنسبة للآخرة، وهي شاملة للماضي والآتي وما بينهما(١).

وقدم سبحانه وتعالىٰ الجار والمجرور في (لهم) في قوله تعالىٰ (فزين لهم الشيطان أعمالهم)؛ وذلك لإبراز الموضوع الهام والمراد في سياق الكلام والغرض المسوق له وذلك لأن سياق الكلام ليس التفصيل في بيان عمل الشيطان من الغواية لأتباعه، لكن سياق الكلام أنما هو مقتصر عن الأمم السابقة التي اتبعت ما زين لها الشيطان من الضلال والكفر بالله، لذلك قدم الجار والمجرور.

وكمال البلاغة في قوله (فهو وليهم) أي أن الشيطان حاميهم ومدافع عنهم عند الله، والسر البلاغي هنا إنما يكمن في استهزاء الله بالكفار، إذ كيف يحميكم وهو لا يستطيع حماية نفسه. كما تكمن بلاغة الآية في الالتفات من الغيبة إلىٰ التكلم، في قوله (تالله) وهذا ضمير غيبة، و كلمة (أرسلنا) ضمير التعظيم للمتكلم، وقد وقع هذا الالتفات لسر بلاغي بديع وهو علو شأن الرسل بسبب أن المرسل لهم هو الله، وأسند الفعل «أرسل» إلىٰ الضمير «نا» المتكلم للتعظيم؛ ولم يأت النص بـ «أرسلت» بل (أرسلنا).

---

(١) بيان المعاني، عبد القادر بن ملّا آل غازي العاني (٤/ ٢٣١).

«وما هذا الالتفات وهذا التعظيم إلا لأن شأن اعتناء الله بهؤلاء البشر الضعفاء أمر عظيم، فإرسال الرسل من الله سبحانه وتعالىٰ ليس كإرسال رسل من البشر إلىٰ البشر، لأن أمر إرسال الله رسله عظيم بكل جوانبه وتفاصيله وذلك لتعلقه بالمرسل سبحانه وتعالىٰ، وبالرسالة المنزلة من عنده جل وعلا، وبما يترتب علىٰ الرسالة من عذاب وعقاب، وبالذي يحمل الرسالة من البشر، إلىٰ غير ذلك من جوانب العظمة في قضية الإرسال»(١).

❐ رابعًا: الخلاصة في بيان الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة.

للعلماء أراء في الالتفات من ضمير الخطاب إلىٰ ضمير الغيبة، حيث قال صاحب التفسير البياني - رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ- في تفسير الآية الكريمة: «وما هذا الالتفات وهذا التعظيم إلا لأن شأن اعتناء الله بهؤلاء البشر الضعفاء أمر عظيم، فإرسال الرسل من الله سبحانه وتعالىٰ ليس كإرسال رسل من البشر إلىٰ البشر، لأن أمر إرسال الله رسله عظيم بكل جوانبه وتفاصيله: بالمرسل سبحانه وتعالىٰ، وبالرسالة المنزلة من عنده جل وعلا، وبما يترتب علىٰ الرسالة من عذاب وعقاب، وبالذي يحمل الرسالة من البشر، إلىٰ غير ذلك من جوانب العظمة في قضية الإرسال».

والسر في الالتفات هو زيادة لتأكيد الفعل والتشريف للرسول والمرسلين وما أرسلوا به من عند الله وتعظيم الاعتناء بشأن هؤلاء البشر الضعفاء مع زيادة تأكيد الفعل والتشريف للرسول ﷺ والمرسلين وما أرسلوا به.

---

(١) التفسير البياني لسورة النحل، سامي القدومي (ص: ١٢٧).

النموذج الثاني: في الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة

قال تعالىٰ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾(١).

أولا: تفسير الآية الكريمة موضع الالتفات والقراءات الواردة فيها:

قال تعالىٰ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ يقرأ بالإمالة والتفخيم، والحجة لمن أمال: أنه دل علىٰ الياء، والحجة لمن فخم أنه أجرىٰ الكلام علىٰ أصله، و «أتىٰ» هاهنا ماض في معنىٰ مستقبل، ودليله قوله: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ ﴾ يريد به الساعة، فالحجة لمن قرأه بالياء: أنه جعله مما أمر الله نبيه عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أن يخبر به، والحجة لمن قرأه بالتاء، أنه أراد: معنىٰ الخطاب، وأتىٰ به تنزيها لله تعالىٰ من عنده، فأنزله الله تصديقا لقوله(٢).

قوله تعالىٰ: «سبحانه وتعالىٰ عما يشركون»، قرأ حمزة والكسائي سبحانه وتعالىٰ عما تشركون بالتاء وحجتهما قوله ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ ﴾ حيث رد الخطاب الثاني علىٰ الأول، وقرأ الباقون بالياء (يشركون) علىٰ الابتداء فلا يردون علىٰ أول الكلام(٣).

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾، قيل: «أتىٰ» بمعنىٰ يأتي، فهو كقولك: «إن أكرمتني أكرمتك»(٤)، ولفظ أتىٰ جاء بصيغة الماضي لأنه أمر سيكون ولا بد من وقوعه، فأتىٰ القرآن فيه بالماضي الذي قد كان في موضع ما سيكون بالمستقبل وهذا دليل علىٰ أن أتىٰ من الله هو لقرب وقوعه، أو لتحتم

---

(١) سورة النحل، الآية، (١).
(٢) الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه (ص: ٢٠٨).
(٣) حجة القراءات، ابن زنجلة (ص: ٣٨٥).
(٤) تفسير القرطبي (١٠/ ٦٥).

وقوعه.

وقيل: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ وهو يوم القيامة علىٰ قول الجمهور. وعن ابن عباس المراد بالأمر هو نصر رسول الله ﷺ، وظهوره علىٰ الكفار، وقال الزمخشري: كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة، أو نزول العذاب بهم يوم بدر استهزاء وتكذيبا بالوعد(١).

والفعل (أتىٰ) فعل ماض بالإجماع، وكل شيء مضىٰ لا يقال فيه لا تستعجل؛ وذلك لأنه مضي وانتهىٰ، لكن الله قيده بقوله: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ وهذا يدل علىٰ عدم الوقوع؛ إذ لو وقع فعلًا فلا يقال فيه (لا تستعجلوه) لأنها لا تكون إلا في الشيء الذي لم يحصل بعد، لكنه هنا مقصوده ما يكون من عذاب الكفار يوم القيامة، وهو ما كان يترقبه الكفار ويكذبون به، لكن لكونه متحقق الوقوع جعله الله – سبحانه – بمنزلة الشيء الذي وقع. وهذا ما لا يقدر عليه إلا الله؛ إذ أي أحد يقول عن شيء: إنه سيقع، فقد يقع كما قال وقد يقع خلاف ما قال.

والظاهر من الآيات أنه لما استبطأ المشركون العذاب نزل: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي الساعة وأتىٰ بصيغة الماضي لتحقق وقوعه، والمعنىٰ: أي قرب ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ تطلبوه قبل حينه فإنه واقع لا محالة ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ تنزيها له ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ به غيره من الآلهة التي يعبدونها.

فقد كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة ونزول العذاب بهم يوم بدر استهزاء وتكذيبًا بالوعد فقيل لهم ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي هو بمنزلة الآتي الواقع وان كان منتظر القرب وقوعه ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ تبرأ جل وعز عن أن يكون له شريك وعن إشراكهم فما موصولة أو مصدرية واتصال هذا

(١) ينظر البحر المحيط في التفسير، أبو حيان (٦/ ٥٠٢).

باستعجالهم من حيث إن استعجالهم استهزاء وتكذيب وذلك من الشرك(١).

✍ **وقال السمرقندي**(٢): قوله تعالىٰ ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي يوم القيامة ويقال يعني العذاب كقوله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾(٣)، وأتىٰ أمر الله بمعنىٰ يأتي أي هو قريب لأن ما هو آت فهو قريب وهذا وعيد لهم، أي لا تتعجلوا أيها الكفار قيام الساعة لأنها كائنة واقعة حتما شئتم أم أبيتم، وقال ابن عباس لما نزلت هذه الآية ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾(٤)، ثم نزل بعدها قوله تعالىٰ ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾(٥)، قالوا يا محمد تزعم أن الساعة قد اقتربت ولا نرىٰ من ذلك شيئا فنزل «أتىٰ أمر الله» أي عذاب الله فوثب رسول الله - ﷺ - قائمًا لا يشك أن العذاب قد أتاهم فقال لهم جبريل ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ قال فجلس النبي ﷺ بعد قيامه فقال النبي ﷺ: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**» وأشار بأصبعيه: السبابة والتي تليها. يقول: «**إن كادت لتسبقني فسبقتها**». وقال ابن عباس: كان بعث النبي ﷺ من أشراط الساعة، وأن جبريل لما مر بأهل السموات مبعوثا إلىٰ محمد ﷺ قالوا: الله أكبر، قد قامت الساعة (٦).

ثم قال «سبحانه وتعالىٰ» أي منزها نفسه عن الصاحبة والولد والشريك،

---

(١) ينظر تفسير النسفي، (٢/ ٢٠٢).

(٢) أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم، الفقيه السمرقندي، المشهور بإمام الهدىٰ، فقيه، مفسر، صوفي، ذكره الداوودي في طبقات المفسرين، قال فيه الذهبي في سير أعلام النبلاء وتروج عليه الأحاديث الموضوعة وروىٰ عنه: الترمذي وغيره، وهو صوفي من كتبه بستان العارفين. وبحر العلوم في التفسير، توفي سنة ٣٧٦هـ. وقيل غير ذلك.

(٣) سورة هود، الآية، (٤٠).

(٤) سورة الأنبياء، الآية، (١).

(٥) سورة القمر، الآية، (١).

(٦) تفسير القرطبي (١٠/ ٦٧).

وارتفع وتعاظم سبحانه وتعالىٰ عن صفة أهل الكفر لذا جاء قوله عَزَّوَجَلَّ «وتعالىٰ عما يشركون» به الكفار من عبادة الأوثان. (وعلىٰ قراءة حمزة والكسائي «تشركون» بالتاء يكون المعنىٰ علىٰ المخاطبة، وقرأ الباقون بالياء فيكون المعنىٰ بلفظ المغايبة)(١)، فقد تجرأ المشركون بطلبهم للعذاب قبل نزوله بهم.

❐ ثانيًا: موضوع الالتفات من ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة في الآية:

جاء الالتفات في قوله تعالىٰ: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بصيغة الغيبة حيث عدل عن صيغة الخطاب في قوله تعالىٰ:﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، ومقتضىٰ الظاهر أن يقال: عما تشركون– تمشيًا مع سابقه، لكنه عدل عن هذا الأسلوب من الخطاب للغيبة لبيان تحتم وقوع الموعود الذي وعدهم الله به وهو وقوع العذاب لهم لكفرهم بالله وإنكارهم ألوهيته.

✍ **قال الزمخشري**: - رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ - مبينًا سبب الالتفات من ضمير الغيبة إلىٰ ضمير الخطاب (كانوا يستعجلون ما وعدهم الله من قيام الساعة أو نزول العذاب بهم يوم بدر، استهزاء وتكذيبًا بالوعد، فقيل لهم ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ الذي هو بمنزلة الآتي الواقع وإن كان منتظرًا لقرب وقوعه ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾. وروي أنه لما نزلت ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾(٢)، قال الكفار فيما بينهم إن محمدا يزعم أن القيامة قد قربت، فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتىٰ ننظر ما هو كائن، فلما تأخرت قالوا: ما نرىٰ شيئًا، فنزلت ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾(٣)، فأشفقوا وانتظروا قربها، فلما امتدت الأيام قالوا: يا محمد، ما نرىٰ شيئًا مما تخوفنا به، فنزلت ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) ينظر تفسير السمرقندي (٢/ ٢٢٨).

(٢) سورة القمر، الآية، (١).

(٣) سورة الانبياء، الآية، (١).

فاطمأنوا. وقرئ : «تستعجلوه» بالتاء والياء ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تبرأ عَزَّوَجَلَّ عن أن يكون له شريك، وأن تكون آلهتهم له شركاء، أو عن إشراكهم علىٰ أنّ «ما» موصولة أو مصدرية، فإن قلت: كيف اتصل هذا باستعجالهم؟ قلت: لأنّ استعجالهم استهزاء وتكذيب وذلك من الشرك) (١).

وعبر سبحانه وتعالىٰ عن قرب إتيان أمر الله بالفعل الماضي (أتىٰ) وذلك للإشعار بتحقق هذا الإتيان، وللتنويه بصدق المخبر به، حتىٰ لكأن ما هو واقع عن قريب، قد صار في حكم الواقع فعلا «وفي إبهام أمر الله إشارة إلىٰ تهويله وتعظيمه، لإضافته إلىٰ من لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وقوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ زيادة في الإنذار والتهديد، أي: فلا جدوىٰ من استعجالكم، فإنه نازل بكم لا محالة سواء استعجلتم أم لم تستعجلوا، والظاهر أن الخطاب هنا للمشركين، لأنهم هم الذين كانوا يستعجلون قيام الساعة، ويستعجلون نزول العذاب بهم، وقد حكىٰ القرآن عنهم ذلك في آيات كثيرة تحدثت عن فضائحهم وكفرهم بالله.

✍ **وقال الزمخشري** - رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ - (كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو نزول العذاب بهم يوم بدر، استهزاء وتكذيبًا بالوعد، فقيل لهم ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ الذي هو بمنزلة الآتي الواقع وإن كان منتظرًا لقرب وقوعه وتحققه لأنه من الله القادر صاحب القدرة المطلقة والذي يعلم السر وأخفي سبحانه وتعالىٰ ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فهنا ذكر الزمخشري - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - تعالىٰ الاستهزاء والتكذيب بالوعد ونزول العذاب بهم فلا يستعجلوه.

◙ ومن فوائد هذه الآية:

أن الله سبحانه عبر بلفظ ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ الذي هو خاص بالماضي عبر به عن

---

(١) ينظر: الكشاف الزمخشري (٢/ ٥٩٢). تفسير النسفي، (٢/ ٢٠٢).

المستقبل وذلك إيذانا منه - سبحانه - بوقوع أمره ولزوم تحقيقه، وهذه لطيفة عظيمة من لطائف بلاغة القرآن الكريم لمن يتأملها ويتدبرها.

لفظ «تَعالىٰ» هذا الفعل ناقص التصرف وقد قيل: الفعل من حيث أداؤه معنىٰ لا يتعلق بزمان أو يتعلق به قسمان: جامد ومتصرف، لأنه إذا تعلق بزمان كان ذلك داعيا لاختلاف صوره لإفادة حدوثه في زمان مخصوص، وإن لم يتعلق بزمان كان هذا موجبا لجموده علىٰ صورة واحدة(١).

❐ ثالثا: الخلاصة في بيان الالتفات:

✍ **ذكر الامام أبو السعود** - رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ - سر الالتفات من ضمير الخطاب إلىٰ ضمير الغيبة فقال: «والالتفات إلىٰ الغَيبة للإيذانِ باقتضاء ذكر قبائحِهم للإعراض عنهم وطرحِهم عن رتبة الخطاب وحكايةِ شنائعهم التي يفعلونها لغيرهم، وعلىٰ تقدير تخصيصِ الخطابِ بالمؤمنين تفوت هذه النُّكتةُ كما يفوت ارتباطُ المنهي عنه بالمتنزه عنه»(٢).

فالالتفات هنا لذكر قبائحهم وللتشنيع بأفعالهم حتىٰ يكونوا عبرة لغيرهم ممن يسمعون حكايتهم، وهذا علىٰ قراءة من قرأ ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ بإلياء وهم الجمهور، فذكر الله اشراكهم به وهو صاحب النعم عليهم، وعدم اهتدائهم مع معرفتهم بأدلة التوحيد الدالة عليها نعمه عليهم، ومن قرأ بالخطاب ﴿عَمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ بالتاء فلمناسبة قوله تعالىٰ ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾.

✍ **وقال الألوسي** - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - مبيننا سر الالتفات من ضمير الخطاب إلىٰ ضمير الغيبة فقال: «والتعبير بالمضارع للدلالة علىٰ تجدد إشراكهم واستمراره

---

(١) الجدول في إعراب القرآن محمود صافي (١٤/ ٢٨٠).

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، (٥/ ٩٥).

والالتفات إلىٰ الغيبة للإيذان باقتضاء ذكر قبائحهم لغيرهم وذلك للإعراض عنهم وطرحهم عن رتبة الخطاب وهذا لا يتأتىٰ علىٰ تقدير تخصيص الخطاب بالمؤمنين»(١).

بين الألوسي هنا أن التعبير بالمضارع إنما يدل دلالة قاطعة علىٰ تجدد اشراكهم واستمراره مع الجحود بنعمه سبحانه، فذكر قبائحهم دون مواربة لفضحهم والتشنيع بهم.

❐ ثالثا: الخلاصة في بيان الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة.

✍ **وقال ابن عاشور** - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - مبينا سر الالتفات من ضمير الخطاب إلىٰ ضمير الغيبة فقال: «وعلىٰ قراءة الجمهور «يشركون» بالتحتية إنما جاء الخطاب علىٰ طريقة الالتفات، فعدل عن الخطاب ليختص التبرؤ من شأنهم أن ينزلوا عن شرف الخطاب إلىٰ الغيبة»(٢).

والمتأمل في الآية الكريمة يجد أن السبب في الالتفات هو الإيذان باقتضاء ذكر قبائحهم للإعراض عنهم وطرحهم عن رتبة الخطاب، والمعنىٰ أن الأمر الموعود به بمنزلة الآتي المتحقق من حيث إنه واجب الوقوع، فلا تستعجلوا وقوعه فإنه لا خير لكم فيه ولا خلاص لكم منه.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ هذا تبرأ من الله عَزَّوَجَلَّ لنفسه عن أن يكون له شريك فيدفع ما أراد بهم، «وقرأ حمزة والكسائي بالتاء علىٰ وفق قوله: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾، والباقون بإلياء علىٰ تلوين الخطاب، أو علىٰ أن الخطاب للمؤمنين أو لهم ولغيرهم(٣).

---

(١) ينظر روح المعاني، للألوسي، (٧/ ٣٣٦).
(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور، بتصرف، (١٤/ ٩٨).
(٣) تفسير البيضاوي، (٣/ ٢١٩).

والسر في الالتفات في الآية هو الإيذان باقتضاء ذكر قبائحهم للإعراض عنهم وطرحهم عن رتبة الخطاب، وقد التفت الله سبحانه وتعالىٰ عن الخطاب للغيبة وذلك لعدم الاعتبار بالمخاطبين (الكفار) واسقاطهم، وذلك لعدم توحيدهم لله ودخولهم في الاسلام، ولأنهم أشركوا بالله تعالىٰ المنعِمِ عليهم بنعم لا تُحصىٰ الالتفات إنما هو للتبرؤ من شأنهم وأفعالهم، وأن ينزلوا عن شرف الخطاب إلىٰ الغيب للحط من قيمتهم.

النموذج الثالث: في الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة

قال تعالىٰ: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾(١).

❐ أولا: تفسير الآية موضع الالتفات والقراءات الواردة فيها.

◙ المفردات:

قوله تعالىٰ: «**وألقىٰ في الأرض رواسي**» أي ومن نعمه عليكم أيها الناس أيضا، أن ألقىٰ في الأرض رواسي، وهي جمع راسية، وهي الثوابت في الأرض من الحبال.

قوله «**أن تميد بكم**» يعني: أن لا تميد بكم، والميد: هو الاضطراب والتكفُّؤ»(٢).

قوله: «**وسُبُلا**»: السُّبل هي الطرق بين الجبال.

قوله: «**وعلامات**» هي النجوم، وعن ابن عباس في قوله: وعلامات يعني معالم الطرق بالنهار، وبالنجم هم يهتدون يعني بالليل» (٣).

وأراد بالعلامات الجبال، فالجبال علامات النهار والنجوم علامات الليل، وقال قتادة: إنما خلق الله النجوم لثلاث أشياء: لتكون زينة للسماء، وعلامات للطريق ورجومًا للشياطين. وقيل هو الثريا والفرقدان وبنات نعش والجدي(٤).

---

(١) سورة النحل، الآيتان، (١٥، ١٦).

(٢) تفسير الطبري (١٧/ ١٨٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم (٧/ ٢٢٧٩).

(٤) ينظر تفسير الثعلبي (٦/ ١٢). مراح لبيد لكشف معنىٰ القرآن المجيد (١/ ٥٨٩).

وقيل جعل فيها أنهارا كالنيل والفرات ودجلة (وسبلا) وطرقا إلىٰ كل بلدة (لعلكم تهتدون) إلىٰ مقاصدكم من البلاد فلا تضلوا(١).

قوله تعالىٰ: وألقىٰ في الأرض رواسي أي: نصب فيها جبالا ثوابت أن تميد أي: لئلا تميد، السبل، فهي الطرق، لعلكم تهتدون أي: لكي تهتدوا إلىٰ مقاصدكم(٢).

◙ المعنى العام للآية:

جعل الله سبحانه وتعالىٰ الجبال سببا أوتادا لتثبت الأرض فلا تتحرك بنا فنهلك بسبب حركتها، ومن ثم لا يصلح لنا بناء ولا زرع أو حرث أو أي شيء مما يكون سببا لعمارتها. لذلك ومن رحمة الله بمخلوقاته جعل في الأرض رواسي أي جبالا ثوابت لتثبت بها الأرض فلا تبرح ولا تتحرك فيهلك ما عليها من الحرث والنسل. «وكل شيء ثبت فقد رسا، أن تميد بكم أي لئلا تميد بكم الأرض. والميد: الحركة والميل(٣).

وألقىٰ في الأرض رواسي وألقىٰ فيها أنهارا وسُبُلًا وألقىٰ فيها علامات، والمراد بالعلامات معالم الطرق وهي الأشياء التي بها يهتدىٰ، وهذه العلامات هي الجبال والرياح – قال الإمام الرازي – ورأيت جماعة يشمون التراب وبواسطة ذلك الشم يتعرفون الطرق وقيل: أن تميد بكم أي كراهة أن تميل بكم وتضطرب. والمائد: الذي يدار به إذا ركب البحر. والسبل: الطرق. ليسلكوا فيها في حوائجهم وأسفارهم. ولو عماها عليكم لهلكتم حيرة وضلالة و﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: تهتدون إلىٰ المواضع التي تريدون الوصول إليها فلا تضلون ولا تتحيرون. قال ابن عباس: العلامات معالم الطرق بالنهار ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ يعني:

---

(١) الوجيز للواحدي (ص: ٦٠٢).

(٢) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي (٢/ ٥٥٣).

(٣) غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٢٠٦).

بالليل[١].

علامات علىٰ السُّبل والطرق من أشجار وجبال وأبنية والنجوم وغير ذلك يستدل بها السابلة، ومنها الأسباب والعلل الشرعية كالأوقات لوجوب الصلاة والصوم والزكاة، ومنها الادلة الطبيعية والعقلية كسرعة النبض علىٰ الحمىٰ»[٢].

✍ **قال الماتريدي**[٣]- رَحِمَهُ ٱللَّهُ - ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا﴾ يخرج ذكر ذلك منه ذكر الامتنان والنعمة؛ لأن له أن يترك الأرض علىٰ ما خلقها؛ ولا يثبتها بالجبال؛ لتميد بأهلها وتميل؛ فلا يقدروا علىٰ القرار عليها والانتفاع بها، لكنه - بفضله ومنّتِه - أثبتها بالجبال؛ ليقروا ويستقروا عليها، ويقدروا علىٰ الانتفاع بها، وكذلك له ألا يجعل لهم فيها أنهارا جارية؛ فيكون مياههم من آبارها، وكذلك له أن يحوجهم بأنواع الحوائج؛ ثم لا يبين لهم الطرق والسبل التي بها يصلون إلىٰ قضاء حوائجهم، ويكلفهم طلب الطرق والسُّبُل التي بها يصلون إلىٰ قضاء حوائجهم، ثم لا يبين لهم الطرق والسبل، وكذلك بفضله جعل لهم في الأرض أنهارا جارية، وأثبت الأرض بالرواسي؛ ليقروا عليها، وذلك كله بمنه وفضله. وقوله - عَزَّوَجَلَّ -: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ يحتمل يهتدون الطرق والسبل التي تفضيهم إلىٰ الحوائج. ويحتمل: يهتدون الهدىٰ المعروف؛ بما

---

(١) ينظر: تفسير الزمخشري، (٢/ ٥٩٨). مفاتيح الغيب الرازي (٢٠/ ١٩١).

(٢) تفسير المظهري، محمد ثناء الله (٥/ ٣٣١).

(٣) أبو منصور محمد بن محمد بن محمود، الماتريدي: من أئمة علماء الكلام، نسبته إلىٰ ماتريد (محلة بسمرقند) من كبار العلماء، له كتاب بيان أوهام المعتزلة، وكتاب تأويلات القرآن. توفي بسمرقند سنة ٣٣٣هـ بعد وفاة أبي الحسن الأشعري بقليل. ينظر الأعلام للزركلي (٧/ ١٩)، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، محمد عبد الحي اللكنوي (٢/ ١٣٠). ومعجم المفسرين من صدر الإسلام وحتىٰ العصر الحاضر، عادل نويهض (٢/ ٦١١).

ذكر من نعمه ومننه»(١).

فقد جعل الله لنا الأنهار لنشرب منها الماء ونسقي منها الدواب والزروع، كما جعل لنا الطرق المعبدة المذللة التي نسير فيها. «والحكمة من جعل هذه الطرق هو اهتداء الإنسان إلىٰ مكان مصالحه وحاجاته»(٢).

✍ **يقول ابن عطية** في تفسيره للآية الكريمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: «ألقىٰ» تقتضي أن الله أحدث الجبال ليس من الأرض لكن من قدرته واختراعه سبحانه علىٰ غير مثال سابق، ويؤيد هذا النظر ما روي في القصص عن الحسن عن قيس بن عباد، أن الله تعالىٰ لما خلق الأرض جعلت تمور، فقالت الملائكة ما هذه بمقرٍ علىٰ ظهرها أحدًا، فأصبحت ضحىٰ وفيها رواسيها. و «الرواسي» الثوابت، من رسا الشيء يرسو إذا ثبت، و «الميد» هو الاضطراب، وقوله {أنهارًا} منصوب بفعل مضمر تقديره وجعل أو وخلق أنهارًا. وقرأ الجمهور «وبالنَّجْم» علىٰ أنه اسم الجنس، وقرأ يحيىٰ بن وثاب «وبالنُّجْم» بضم النون والجيم ساكنة علىٰ التخفيف من ضمها، وقرأ الحسن «وبالنُّجُم» بضم النون والجيم وذلك جمع، كسقف وسُقُف، ورهن ورُهُن، ويحتمل أن يراد وبالنجوم، فحذفت الواو(٣).

والمعنىٰ ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ أي ألقىٰ في الأرض جبالًا ثوابت ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ كي لا تميد بكم، وميدانها ميلها وحركتها إذ لو كانت تتحرك لما استقام العيش عليها والحياة فيها. ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ أي وأجرىٰ لكم أنهارًا في الأرض كالنيل والفرات وغيرهما من الأنهار»(٤).

---

(١) ينظر تفسير الماتريدي تأويلات أهل السنة (٦/ ٤٨٨).
(٢) التفسير في سورة النحل، سامي وديع القدومي (ص: ٣١).
(٣) ينظر، تفسير ابن عطية، (٣/ ٣٨٥).
(٤) أيسر التفاسير للجزائري (٣/ ١٠٥).

أما الجبال الرواسي فالعلم الحديث يعلل وجودها ولكنه لا يذكر وظيفتها التي يذكرها القرآن هنا، يعلل وجودها بنظريات كثيرة متعارضة أهمها أن جوف الأرض الملتهب يبرد فينكمش، فتتقلص القشرة الأرضية من فوقه وتتجعد فتكون الجبال والمرتفعات والمنخفضات. ولكن القرآن يذكر أنها تحفظ توازن الأرض، وهذه الوظيفة لم يتعرض لها العلم الحديث»(١).

والمصدر المؤول (أن تميد) في محل نصب مفعول لأجله علىٰ حذف مضاف، أي مخافة أن تميد بكم، وجملة: «لعلكم تهتدون» لا محل لها استئناف بياني- أو تعليل-. (وعلامات): أي وضع علامات ويجوز أن تعطف علىٰ «رواسي». وهي جمع علامة، اسم للإشارة من أعلمت علىٰ كذا من الكتاب وغيره. و«بالنجم»: يقرأ علىٰ لفظ الواحد، وهو جنس. وقيل: يراد به: الجدي ؛ وقيل: الثريا(٢).

✍ **وقال القرطبي** - رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ - قال ابن عباس: العلامات معالم الطرق بالنهار أي جعل للطرق علامات يقع الاهتداء بها «وبالنجم هم يهتدون» يعني بالليل والنجم يراد به النجوم. واختلف في النجوم فقيل: الجدي والفرقدان وقيل: الثريا وقيل: العلامات الجبال وقال مجاهد: هي النجوم لأن من النجوم ما يهتدي بها ومنها ما يكون علامة لا يتهدىٰ بها. أو وجعل لكم علامات ونجوما تهتدون بها ومن العلامات الرياح يهتدىٰ بها.

✍ **وقال ابن العربي**(٣): أما جميع النجوم فلا يهتدي بها إلا العارف بمطالعها

---

(١) في ظلال القرآن سيد قطب (٤/ ٢١٦٣).

(٢) ينظر التبيان في إعراب القرآن (٢/ ٧٩٢). الجدول في إعراب القرآن (١٤/ ٢٩٤).

(٣) الإمام العلامة الحافظ القاضي، أبو بكر، محمد بن عبد الله بن محمد، ابن العربي الأندلسي المالكي، صاحب التصانيف، ولد سنة ٤٦٨هـ، سمع من طائفة بالأندلس، كان أبوه من كبار أصحاب ابن حزم الظاهري، بلغ رتبة الاجتهاد، من كتبه عارضة الأحوذي، والعواصم، وغيرهما وتوفي سنة ٥٤٣هـ. ينظر سير أعلام النبلاء، (١٥/ ٤٢). وفيات =

ومغاربها والفرق بين الجنوبي والشمالي منها وذلك قليل في الآخرين، وأما الثريا فلا يهتدي بها إلا من يهتدي بجميع النجوم وإنما الهدي لكل أحد بالجدي والفرقدين لأنها من النجوم المنحصرة المطالع الظاهرة السمت الثابتة في المكان فإنها تدور علىٰ القطب الثابت دورانا محصلا فهي أبدا هدي الخلق في البر إذا عميت الطرق وفي البحر عند مجرىٰ السفن وفي القبلة إذا جهل السمت وذلك علىٰ الجملة بأن تجعل القطب علىٰ ظهر منكبك الأيسر فما استقبلت فهو سمت الجهة(١).

❐ ثانيًا: موضع الالتفات من ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة في الآية.

جاء الالتفات في قوله تعالىٰ:﴿هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بصيغة الغيبة حيث عدل عن صيغة الخطاب في قوله تعالىٰ:﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، ومقتضىٰ الظاهر أن يقال: وبالنجم أنتم تهتدون – تمشيًا مع سابقه علىٰ صيغة الخطاب.

❐ ثالثا: الخلاصة في بيان الالتفات.

ذكر الزمخشري أن الكلام إنما تلوّن بهذا الأسلوب لأن قريشًا كان لهم علم بالنجوم لم يكن لغيرهم مثله (فان قلت وبالنجم هم يهتدون مخرج عن سنن الخطاب مقدم فيه (النجم) مقحم فيه (هم)، كأنه قيل: وبالنجم خصوصًا هؤلاء خصوصًا يهتدون فمَن المراد بـ (هم)؟ قلت: كانه أراد قريشًا، الذين كان لهم اهتداء بالنجوم في مسايرهم، وكان لهم علم بذلك لم يكن مثله لغيرهم، فكان الشكر أوجب عليهم والاعتبار الزم لهم فخُصِّصوا(٢).

=

الأعيان (٤/ ٢٩٧).

(١) تفسير القرطبي (١٠/ ٩١).

(٢) الكشاف، للزمخشري، (٢/ ٥٩٩)، و مدارك التنزيل، للنسفي، ٢/ ٢٥٢.

«وقرئ بضمتين (النُّجُم) وبضمة وسكون(النُّجْم) وهو جمع كرهن ورهن وقيل الأول بطريق حذف الواو من النجوم للتخفيف ولعل الضمير لقريش فإنهم كانوا كثيري التردد للتجارة مشهورين بالاهتداء بالنجوم في أسفارهم، وصرف النظم عن سنن الخطاب وتقديم النجم وإقحام الضمير للتخصيص كأنه قيل وبالنجم خصوصا هؤلاء خصوصا يهتدون فالاعتبار بذلك والشكر عليه ألزم لهم وأوجب عليهم»(١) وإلىٰ مثل هذا أشار الألوسي(٢).

وقوله وبالنجم هم يهتدون كلام منفصل عن الأول. والمراد بالنجم الجنس وإنما جيء بالضمير الغائب لعوده إلىٰ السائرين الدال عليهم ذكر السبل(٣).

ولما كانت الدلالة بالنجم أنفع الدلالات وأعمها وأوضحها برًا وبحرًا ليلًا ونهارًا، نبه علىٰ عظمها بالالتفات إلىٰ مقام الغيبة لإفهام العموم لئلا يظن أن المخاطب مخصوص، وأن الأمر لا يتعداه، فقال تعالىٰ: {وبالنجم هم} أي أهل الأرض كلهم، وأولىٰ الناس بذلك أول المخاطبين، وهم قريش ثم العرب كلها، لفرط معرفتهم بالنجوم «يهتدون» وقدم الجار تنبيهًا علىٰ أن دلالة غيره بالنسبة إليه سافلة(٤).

وإضمار هذا الفعل دليل علىٰ خصوص لألقىٰ ولو كانت ألقىٰ بمعنىٰ خلق لم يحتج إلىٰ هذا الإضمار، و «السبل» الطرق، وقوله لعلكم تهتدون في مشيكم وتصرفكم في السبل، ويحتمل لعلكم تهتدون بالنظر في هذه المصنوعات وتهدوا بها إلىٰ صانعها وخالقها وهو الله سبحانه وتعالىٰ، والمعنىٰ يكون أي سخر الله الأرض

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، (٥/ ١٠٤)، روح البيان، اسماعيل حقي (٥/ ٢١).
(٢) روح المعاني، للألوسي، (١٤/ ١٩٢). أسرار التكرار في القرآن، للكرماني (١/ ١٢٥). الجدول في إعراب القرآن (١٤/ ٢٩٤).
(٣) تفسير النيسابوري، (٤/ ٢٥١).
(٤) نظم الدرر، البقاعي (١١/ ١٢٨).

وجعل لها رواسي حتىٰ لا تهتز وتميد بمن عليها، وأنهارا يشربون ويزرعون منها، وسبلا ممهدة وطرقا معبدة لعل البشر الذين يعيشون عليها يعتبرون بها ويرشدهم هذا لخالقها والنجوم كذلك لتكون علامات يهتدون بها في كل هذا، والمتأمل في الآية الكريمة يجد أن السبب في الالتفات هو التنديد بكفار قريش من أهل مكة وغيرهم من العرب، حيث أنهم كانوا أعرف الناس بالنجوم ويهتدون بها في أسفارهم وغدوهم ورواحهم، فكان الواجب عليهم شكر هذه النعم بعبادتهم للمنْعِم سبحانه وتعالىٰ.

النموذج الرابع: في الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة

قال تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾(١).

❐ أولا: تفسير الآية موضع الالتفات والقراءات الواردة فيها.

◙ القراءات الواردة في الآية:

ورد في هذه الآية من القراءات: الادغام الكبير للسوسي عن أبي عمرو البصري (خلقكم، العمر لكيلا، يعلم بعد) الإمالة في قوله (يتوفاكم) حمزة والكسائي وخلف العاشر، وقللها ورش بخلاف. السكت في قوله (شيئا) لحمزة النقل والادغام وقفا، والسكت وصلا. ولورش توسط اللين المهموز بخلاف.

◙ المعنى العام للآية:

هذه الآية الكريمة تنبه الناس جميعًا مسلمين وغير مسلمين علىٰ الاعتبار بمسألة هامة وهي مسألة إيجادنا من العدم وإماتتنا بعد هذا الوجود، وهي من أعظم الأمور التي اختل ميزانها عند الناس من غير المسلمين الذين يقولون في هذه العصور وحتىٰ فيما سبق من أزمنة يقولون بأن الطبيعة أوجدتنا ومن ثم لن نبعث بعد الموت، وهذا هو الحوار الذي كثيرا ما كان العرب يجادلون فيه النبي - ﷺ - وقد ذُكر في القرآن كثيرا، وعلاقة الآية بما قبله علاقة وثيقة كما جميع آيات وسور القرآن.

✍ **يقول البقاعي**: «ولما أيقظهم الله من رقدتهم، ونبههم علىٰ عظيم غفلتهم من عموم القدرة وشمول العلم، المقتضي للفعل بالاختيار، المحقق للبعث وغيره،

---

(١) سورة النحل، الآية، (٧٠).

من كل ما يريده سبحانه ببعض آياته المبثوثة في الآفاق من جماد ثم حيوان، وختم ذلك بما هو شفاء، ثنىٰ ببعض ما في أنفسهم من الأدلة علىٰ ذلك مذكرا بمراتب عمر الإنسان الأربع»(١).

لما ذكر الله تعالىٰ فيما سبق من آيات بعض عجائب أحوال الحيوانات، ذكر بعده بعض عجائب أحوال الناس وهو إشارة إلىٰ مراتب عمر الإنسان، والله خلقكم من العدم ولم تكونوا شيئا ثم يتوفاكم عند انقضاء آجالكم ومنكم من يرد إلىٰ أرذل العمر، وهو أردؤه وأضعفه، وقيل الخَرَف لأن الخرف معناه زوال العقل، قوله: إن الله عليم قال ابن عباس: يريد بما صنع أولياؤه وأعداؤه قدير علىٰ ما يريد.

والله خلقكم أي: أوجدكم من لا شيء من العدم ولم تكونوا شيئا ثم يتوفاكم عندما يحين الوقت الذي قضاه الله بانقضاء آجالكم، «ومنكم من يرد إلىٰ أرذل العمر وهو أردؤه، وأدونه، وهي حالة الهرم. لكي لا يعلم بعد علم شيئا أي لكي لا يعقل من بعد عقله الأول شيئا، وقيل حتىٰ لا يعلم بعد علمه بالأمور شيئا، لشدة هرمه. والمعنىٰ: أن منكم من يكبُر حتىٰ يذهب عقله خرفا، فيصير بعد أن كان عالما جاهلا، ليريكم من قدرته، كما قدر علىٰ إماتته وإحيائه، أنه قادر علىٰ نقله من العلم إلىٰ الجهل(٢).

وأرذل العمر أخسه وأحقره لكي لا يعلم بعد علم شيئا ليصير إلىٰ حالة شبيهة بحال الطفولة في النسيان، وأن يعلم شيئا ثم يسرع في نسيانه فلا يعلمه إن سُئل عنه. وقيل: لئلا يعقل من بعد عقله الأول شيئا: وقيل: لئلا يعلم زيادة علم علىٰ علمه كي لا يعلم بعد علم شيئا أي: صار بحال لا يعلم ما علم من قبل»(٣).

---

(١) ينظر نظم الدرر، البقاعي (١١/ ٢٠٥)، مفاتيح الغيب، الرازي (٢٠/ ٢٣٩).
(٢) ينظر زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي (٢/ ٥٧٠).
(٣) تفسير الكشاف، الزمخشري (٢/ ٦١٩). بحر العلوم، السمرقندي (٢/ ٢٨١).

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ يعني أردأه وأوضعه. وقيل: الذي ينقص قوته وعقله ويصيره إلىٰ الخَرَف ونحوه. وقال ابن عباس: يعني إلىٰ أسفل العمر، يصير كالصبي الذي لا عقل له، والمعنىٰ متقارب. ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ أي يرجع إلىٰ حالة الطفولية فلا يعلم ما كان يعلم قبل من الأمور لفرط الكبر، والمعنىٰ المقصود الاحتجاج علىٰ منكري البعث، أي الذي رده إلىٰ هذه الحال قادر علىٰ أن يميته ثم يحييه. أرذل العمر: أردأ العمر وأسوؤه أوضعه وأنقصه أو هو الهرم، والعمر من جهة أنه زمن لا ينسب إليه أنه أحسن وأرذل، ولكنه ينسب إلىٰ العمر الحسن والرداءة بالنسبة لحال صاحب العمر. ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ﴾ قيل: اللام للتعليل، وقيل: للصيرورة ولام التعليل تعني أن الذي رد إلىٰ أرذل العمر رد لأجل أن لا يعلم شيئا مما كان علمه، ولا يقدر علىٰ أن يتعلم شيئا(١).

وهذا لا ينحصر إلىٰ مدة معينة وإنما هو بحسب إنسان وإنسان، والمعنىٰ، منكم من يرد إلىٰ أرذل عمره ورب من يكون ابن خمسين سنة وهو في أرذل عمره، ورب ابن مائة أو تسعين ليس في أرذل عمره، واللام في لكي يشبه أن يكون لام صيرورة، وليس ببين، والمعنىٰ ليصير أمره بعد العلم بالأشياء إلىٰ أن لا يعلم شيئا، وهذه عبارة عن قلة علمه لا أنه لا يعلم شيئا البتة، وقد تكون زائدة ثم قرر تعالىٰ علمه وقدرته التي لا تتبدل ولا تحملها الحوادث ولا تتغير(٢).

وقد قيل في أرذل العمر بتحديدها بسنٍّ معين أقوال كثيرة منها أن أرذل العمر هو خمس وسبعون. أو ثمانون سنة، أو تسعون أو خمس وتسعون وقيل غير ذلك.

وبعد أن بينت الآيات السابقة مظاهر قدرة الله الدالة علىٰ استحقاقه للعبادة وحده، تكمل هذه الآية بيان قدرة الله بتصرفه بحياتنا، لبيان أن تصرفه هو أوضح

---

(١) ينظر بتصرف تفسير القرطبي (١٠/ ١٤٠) تفسير العز بن عبد السلام (٢/ ١٩٧).
(٢) ينظر تفسير المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية (٣/ ٤٠٧).

دليل علىٰ عبوديتنا، وأنه الرب المعبود وحده، فالله سبحانه وتعالىٰ وحده من خلقنا، وهو سبحانه مَن يميتنا، وقد يبقي بعض الناس ليعمروا حتىٰ يصلوا أسوأ مراحل العمر من الهرم والضعف الخَرَف، حيث يأخذ الله سبحانه ما آتاهم من علم، وكل هذا بدون إرادتنا وبدون موافقتنا؛ والله عليم بما يفعل، قدير علىٰ إمضاء ما أراد(١).

✍ **يقول الأستاذ سيد قطب في ظلاله**: «واللمسة الأولىٰ في الحياة والوفاة، وهي متصلة بكل فرد وبكل نفس والحياة حبيبة، والتفكر في أمرها قد يرد القلب الصلد إلىٰ شيء من اللين، وإلىٰ شيء من الحساسية بيد الله ونعمته وقدرته، والخوف عليها قد يستجيش وجدان التقوىٰ والحذر والالتجاء إلىٰ واهب الحياة، وصورة الشيخوخة حين يرد الإنسان إلىٰ أرذل العمر، فينسىٰ ما كان قد تعلم، ويرتد إلىٰ مثل الطفولة من العجز والنسيان والسذاجة. هذه الصورة قد ترد النفس إلىٰ شيء من التأمل في أطوار الحياة، وقد تغض من كبرياء المرء واعتزازه بقوته وعلمه ومقدرته. ويجيء التعقيب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ ليرد النفس إلىٰ هذه الحقيقة الكبيرة، أن العلم الشامل الأزلي الدائم لله، وأن القدرة الكاملة التي لا تتأثر بالزمن هي قدرة الله، وأن علم الإنسان إلىٰ حين، وقدرته إلىٰ أجل، وهما بعد جزئيان ناقصان محدودان(٢).

والله خلقكم: أظهركم إلىٰ عالم الشهادة، ثم يتوفاكم: يردكم إلىٰ عالم الغيب عند انتهاء آجالكم، ومنكم من يرد إلىٰ أرذل العمر أي: أخسه، وهو الهرم والخرف، الذي يشابه الطفولية في نقصان القوة والعقل وليس المراد نفي العلم بالكلية، بل عبارة عن قلة العلم لغلبة النسيان(٣).

---

(١) ينظر التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني (ص: ١٤١).
(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٢١٨٢).
(٣) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ابن عجيبة (٣/ ١٤٥).

وقوله (خلقكم) هو أبلغ من لو قيل: والله أوجدكم فإن الخلق في اللغة هو التقدير والإيجاد علىٰ غير مثال سابق، تدل علىٰ أنه تعالىٰ قدر الخلق علىٰ صفة دون صفة وأوجدهم وهم غير متشابهون بل لكل واحد خصوصيته في جسده وكلامه وحتىٰ بصمته ولونه إلىٰ غير ذلك مما ينفرد فيه كل إنسان عن الآخر. وهذا دليل علىٰ اتصافه سبحانه بالقدرة المطلقة والإرادة الشاملة والعلم المحيط بكل شيء.

«قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ قسم الله الخلق إلىٰ ثلاثة أقسام فمنهم من يموت قبل رده إلىٰ أرذل العمر ومنهم من يعيش حتىٰ يصير إلىٰ أرذل العمر وهذا هو الجواب عن سبب تقديمه ذكر المتوفي: إلىٰ الرد إلىٰ أرذل العمر مع تأخره عنه في الوجود، فإن قلت: لم أسند الخلق والتوفية إلىٰ الله ولم يسند إليه فعل الرد إلىٰ أرذله مع أن الكل من فعله جل وعلا عند أهل السنة، قلنا: تأدب معه وتكرمة لذاته في عدم التبعيض علىٰ نسبه إليه. قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ وقدم العلم لعموم تعلقه بالمعدوم والموجود والمستحيل بخلاف القدرة (١).

وحرف العطف (ثم) يفيد الترتيب مع التراخي، أي: يتوفاكم الله بعد مرور وقت بين الحدثين الخلق والوفاة ولو برهة من الزمن.

«فهو سبحانه خلقكم، ثم بعد وقت وتراخ يحدث الحدث الثاني (يتوفاكم) علىٰ خلاف حرف (الفاء)، فهو حرف عطف يفيد الترتيب مع التعقيب أي: تتابع الحدثين، كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾(٢). فبعد الموت يكون الإقبار دون تأخير(٣).

---

(١) تفسير، ابن عرفة (٣/ ٣٣).

(٢) عبس، الآية، (٢١).

(٣) تفسير الشعراوي، (١٣/ ٨٠٦٣).

وهذا كله إنما يدل دلالة واضحة علىٰ كمال علمه تعالىٰ، وتمام قدرته المطلقة، إن الله عليم قدير أي: إن الله- تعالىٰ- عليم علم إحاطة وشمول بأحوال جميع مخلوقاته، فلا يخفي عليه سبحانه وتعالىٰ أي شيء من تصرفاتهم ولو أقل مما يتخيلونه. قدير علىٰ تبديل أمور عباده حسب ما تقتضيه حكمته سبحانه وإرادته.

❐ ثانيًا: موضع الالتفات من الخطاب إلى الغَيْبة في الآية الكريمة:

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾

حيث بدأ سبحانه بالخطاب في قوله (خلقكم، يتوفاكم، منكم من يرد) ثم يتغير أسلوب الخطاب فيأتي الالتفات إلىٰ الغيبة في قوله ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾

وهذا انتقال من الاستدلال بدقائق صنع الله علىٰ وحدانيته إلىٰ الاستدلال بتصرفه في الخلق التصرف الغالب لهم الذي لا يستطيعون دفعه، علىٰ انفراده بربوبيتهم، وعلىٰ عظيم قدرته. كما دل عليه تذييلها بجملة إن الله عليم قدير فهو خلقهم بدون اختيار منهم ثم يتوفاهم كرها عليهم أو يردهم إلىٰ حالة يكرهونها فلا يستطيعون ردا لذلك ولا خلاصا منه، وبذلك يتحقق معنىٰ العبودية بأوضح مظهر.

وابتدأت الجملة باسم الجلالة بالإظهار دون الإضمار لقصد التنويه بالخبر إذ افتتح بهذا الاسم، ولأن دلالة الاسم العلم أوضح وأصرح. فهو مقتضىٰ مقام تحقيق الانفراد بالخلق والإنعام دون غيره. ولأن مقام الاستدلال يقتضي تكرير اسم المستدل- بفتح الدال- علىٰ إثبات صفاته تصريحًا واضحًا. وجيء بالمسند فعليا لإفادة تخصيص المسند إليه بالمسند الفعلىٰ في الإثبات، واستعارة حرف العلة إلىٰ معنىٰ العاقبة مستعملة في الكلام البليغ في مقام التوبيخ أو التخطئة أو نحو ذلك وتنكير عِلْمٍ تنكير الجنس. والمعنىٰ: لكيلا يعلم شيئا بعد أن كان له علم. وبناء

الجملة علىٰ المسند الفعلىٰ لإفادة التخصيص، أي الله لا غيره»(١).

وهنا سبب للالتفات وهو التنبيه علىٰ خطأ المخاطبين من كفار مكة ومن لفّ لفهم إلىٰ قيام الساعة، في إنكارهم البعث والنشور ويوم القيامة، حتىٰ أن البعض أنكروا وجود الله أصلا، لذا جاءت الآية الكريمة لإزالة هذا الإشكال بطريقة الالتفات من الخطاب إلىٰ الغيبة.

«والله خلقكم أيها الناس وأوجدكم ولم تكونوا شيئًا، لا الآلهة التي تعبدون من دونه ولا غيرها، فاعبدوا الله الذي خلقكم دون غيره ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ ثم يقبضكم ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ ومنكم من يهرم فيصير إلىٰ أرذل العمر، وهو أردؤه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ إن الله لا ينسىٰ، ولا يتغير علمه، عليم بكل ما كان ويكون، قدير علىٰ ما شاء لا يجهل شيئا، ولا يعجزه شيء أراده(٢).

لكي لا يعلم بعد علم شيئًا ليصير إلىٰ حالة شبيهة بحالة الطفولية في النسيان وسوء الفهم. إن الله عليم بمقادير أعماركم. قدير يميت الشاب النشيط ويبقىٰ الهرم الفاني، وفيه تنبيه علىٰ أن تفاوت آجال الناس ليس إلا بتقدير قادر حكيم، ركّب أبنيتهم وعدّل أمزجتهم علىٰ قدر معلوم، ولو كان ذلك مقتضىٰ الطبائع لم يبلغ التفاوت هذا المبلغ(٣).

وفي قوله تعالىٰ: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ إشارة إلىٰ أن هذا الإنسان الذي امتد به الأجل إلىٰ هذا المدىٰ، قد عاد من رحلته الطويلة في الحياة، إلىٰ النقطة التي بدأ منها.. فمن وُلد لا يعلم شيئا، انتهىٰ إلىٰ حيث لا يعلم شيئا، كما يقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ وفي الآية الكريمة صورة

(١) ينظر التحرير والتنوير، ابن عاشور (١٤/ ١٩٨، ٢١١).
(٢) تفسير الطبري (١٧/ ٢٥١).
(٣) تفسير البيضاوي (٣/ ٢٣٣).

كاشفة لهذا الإنسان الذي مكن الله سبحانه وتعالىٰ له من القوىٰ الجسدية والعقلية، فاتخذ منها أسلحة يحارب الله بها، ويتسلط بها علىٰ خلق الله، فلو أنه عقل ونظر إلىٰ نفسه في مرآة الزمن، حين يمتد به العمر، لرأىٰ كيف يكون حاله من الضعف والوهن.. وإذن لأقام حسابه مع هذه القوة التي بين يديه علىٰ العدل والإحسان، ولأبقىٰ لنفسه رصيدا من الخير والمعروف يحتفظ به في يد الحياة، لتقدمه له في تلك المرحلة الحرجة في حياته(١)..

والآية مثلٌ ضرب للذين جعلوا له تعالىٰ شركاء. أي أنتم لا تسوون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم. ولا تجعلونهم فيه شركاء. ولا ترضون ذلك لأنفسكم. فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدي شركاء في الإلهية والتعظيم؟. وحثا علىٰ التفكر في آياته والتعقل لها قبل حلول ذلك الحادث وهو الموت ثم الحساب ومن ثم الجنة أو النار، فيفوت الفوت، ويندموا حيث لا ينفع الندم، فقال: {والله} أي المحيط بكل شيء قدرة وعلما {خلقكم} فجعلكم بعد العدم أحياء فهما خصما {ثم يتوفاكم} علىٰ اختلاف الأسنان، فلا يقدر الصغير علىٰ أن يؤخر، ولا الكبير علىٰ أن يقدم، فمنكم من يموت حال قوته {ومنكم من يرد} أي بأمر أمر منا، لا يقدر علىٰ مخالفته بوجه {إلىٰ أرذل العمر} لأنه يهرم فيصير إلىٰ مثل حال الطفولية»(٢).

❐ ثالثا: الخلاصة في بيان الالتفات في الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة:

لكي لا يعلم بعد علم شيئا ليصير الىٰ حالة شبيهة بحال الطفولية في سوء الفهم ونسيان النِعم. واللام علىٰ كي للتأكيد وهىٰ متعلقة بـ {يُردّ}. وقال بعضهم اللام جارة وكي حرف مصدري، وفيه تنبيه علىٰ أن تفاوت الآجال ليس الا بتقدير قادر

---

(١) التفسير القرآني للقرآن (٧/ ٣٢٧).

(٢) ينظر بتصرف: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي (١١/ ٢٠٥). تفسير محاسن التأويل، القاسمي (٦/ ٣٨٩).

حكيم»

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ ﴾ الله مبتدأ وجملة خلقكم خبر ثم حرف عطف للتراخي كما تقدم ومنكم الواو حرف عطف ومنكم خبر مقدم وهو معطوف علىٰ مقدر أي فمنكم من يبقىٰ محتفظا بقوة جسمه وعقله ومنكم، ومن مبتدأ مؤخر وجملة يرد صلة ونائب الفاعل مستتر تقديره هو وإلىٰ أرذل العمر متعلقان بيرد وأرذل العمر هو الهرم»(١).

وإيثار الرد علىٰ الوصول والبلوغ ونحوهما للإيذان بأن بلوغه والوصول إليه رجوع في الحقيقة إلىٰ الضعف بعد القوة كقوله تعالىٰ ومن نعمره ننكسه في الخلق ولا عمر أسوأ حالا من عمر الهرم الذي يشبه الطفل في نقصان العقل والقوة ﴿لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ ﴾ كثير ﴿شَيۡـٔٗا ﴾ من العلم أو من النحل المعلومات أو لكيلا يعلم شيئا بعد علم بذلك الشيء وقيل لئلا يعقل بعد عقله الأول شيئا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ ﴾ بمقادير أعماركم ﴿قَدِيرٌ ﴾ علىٰ كل شيء يميت الشاب النشيط ويبقي الهرم الفاني وفيه تنبيه علىٰ أن تفاوت الآجال ليس إلا بتقدير قادر حكيم ركب أبنيتهم وعدل أمزجتهم علىٰ قدر معلوم ولو كان ذلك مقتضىٰ الطبائع لما بلغ التفاوت هذا المبلغ»(٢).

يتبين مما سبق أن الالتفات في الآية أفاد التعجب لما فيه من مزيد الإنكار علىٰ الكفار مما يستوجب معه التعجب من هذا الكفر، وسياق الآيات يوضح هذا الأمر، لأن الله تعالىٰ قد بيّن لهم مسيرة حياة الناس ونهاية مآلهم فقال: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴾(٣).

---

(١) ينظر إعراب القرآن وبيانه (٥/ ٣٣٥) روح البيان (٥/ ٥٥).

(٢) تفسير أبي السعود (٥/ ١٢٦)

(٣) سورة النحل، الآية، (٧٠).

وقوله ﴿عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ صيغة مبالغة وجملة «ومنكم من يرد» مستأنفة(١).

من خلال العرض السابق يتبين أن السر في الالتفات في الآية الكريمة هو التعجب من أحوال الكافرين الذين يمرون بمراحل متعددة من الخلق وحتىٰ ردهم لأرذل العمر ثم الوفاة ثم ينكرون كل هذا، والإخبار عن الماضي بالمستقبل: أبلغ وأوقع في النفس من الإخبار بالماضي نفسه. ولذلك أكمل الله تعالىٰ هذه الصيغة في الآية التي تليها في قوله تعالىٰ وعلىٰ ربهم يتوكلون والذي يظهر هنا أن المعنىٰ علىٰ المضي، والتعبير بصيغة المضارع إنما جاء لاستحضار تلك الصورة البليغة البديعة حتىٰ كأن السامع لها هو من يشاهدها وصرف الخطاب إلىٰ غيرهم من السامعين متعجبا من إنكارهم البعث والنشور.

(١) المجتبىٰ من مشكل إعراب القرآن أحمد محمد الخراط (٢/ ٥٨٨). الجدول في إعراب القرآن، محمود عبد الرحيم صافي (١٤/ ٣٢٤).

ثالثًا: أسرار الالتفات عن الغيبة إلى التكلم

النموذج الأول: في الالتفات عن الغيبة إلى التكلم

قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ ﴾(١).

أولا: تفسير الآية الكريمة موضع الالتفات والقراءات الواردة فيها.

القراءات الواردة في الآية الكريمة:

قرأ أبو جعفر (لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ) بالياء لنبوينهم وصلًا ووقفًا وكذلك حمزة وقفا. وقرئ لنثوبنهم بالثاء من الثواب. (فِي ٱلدُّنۡيَا) أمالها حمزة والكسائي وخلف العاشر، وقللها أبو عمرو البصري وورش بخلاف. (حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ) ترك الغنة لخلف عن حمزة. (ٱلۡأٓخِرَةِ) ثلاثة البدل لورش وترقيق الراء فيها وسكت حمزة بخلف عن خلاد. وامالة تاء التأنيث للكسائي.

المفردات:

قوله: {والذين هاجروا} أي: هاجروا من مكة إلىٰ المدينة {في الله} في طاعة الله أو في سبيل الله. {من بعد ما ظلموا} أي: عذبوا. {لنبوئنهم أي: لننزلنهم بالمدينة. {في الدنيا حسنة} ولنعطينهم الغنيمة، فهذا الثواب في الدنيا. {ولأجر الآخرة} أي: الجنة. {أكبر} أي: أفضل. {لو كانوا يعلمون} أي: يصدقون بالثواب.

المعنى العام للآية:

تبين الآية فضل الصبر علىٰ الأذىٰ والتوكل علىٰ الله في تبليغ دعوة الله سبحانه

(١) سورة النحل، الآية، (٤١).

لخلقه. وذلك لأن الصبر علىٰ الأذىٰ فيه من قهر النفس وحبسها عما تحب لما فيه رضا الله، وأما التوكل علىٰ الله: فللبعد عن الناس والسير في طريق الحق والاتجاه إلىٰ الخالق وحده، كما بينت الآية بيانا وافيا جزاء المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأوطانهم وأموالهم وصبروا علىٰ الأذىٰ وتوكلوا علىٰ ربهم، حيث الموطن الأصلي والأفضل، والمنزلة الطيبة، والعيشة الهنية، والطيبات من الرزق الوفير، والسيادة علىٰ البلاد والعباد تركوا كل هذا حسبة لله وحده.

قوله تعالىٰ: والذين هاجروا: مبتدأ، و «لنبوئنهم» الخبر، ويجوز أن يكون في موضع نصب بفعل محذوف يفسره المذكور، حسنة: مفعول ثان لنبوئنهم؛ لأن معناه لنعطينهم، ويجوز أن يكون صفة لمحذوف؛ أي دارا حسنة ؛ لأن بوأته أنزلته، وفي قراءة علىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: (لنبوئنهم إبواءة حسنة)(١).

الإعراب:

و(الواو) استئنافية (الذين) اسم موصول مبني في محل رفع مبتدأ. (هاجروا) فعل ماض وفاعله (في الله) جار ومجرور متعلق ب (هاجروا) علىٰ حذف مضاف أي في سبيل الله، أو في إعلاء كلمة الله (من بعد جار ومجرور متعلق ب (هاجروا)، (ما) حرف مصدري (ظلموا) فعل ماض مبني للمجهول مبني علىٰ الضم.. و (الواو) نائب الفاعل (اللام) لام القسم لقسم مقدر (نبوئنهم) مضارع مبني علىٰ الفتح في محل رفع.. و (النون) نون التوكيد، و (هم) ضمير مفعول به، والفاعل نحن (في الدنيا) جار ومجرور متعلق ب (نبوئن)، وعلامة الجر الكسرة المقدرة (حسنة) مفعول به ثان منصوب بتضمين الفعل معنىٰ نعطِيّن، (الواو) عاطفة (اللام) لام الابتداء للتوكيد (أجر) مبتدأ مرفوع (الآخرة) مضاف إليه مجرور (أكبر) خبر مرفوع (لو) حرف شرط غير جازم وجملة (لو كانوا يعلمون) مستأنفة، وجواب

(١) التبيان في إعراب القرآن، العكبري (٢/ ٧٩٦). تفسير الرازي (٢٠/ ٢٠٩).

الشرط محذوف أي: لآمنوا. (ولأجر) الواو استئنافية واللام لام الابتداء وأجر مبتدأ (الآخرة) مضاف إليه (أكبر) خبر والجملة مستأنفة (لو) أداة شرط غير جازمة (كانوا) كان واسمها والجملة لا محل لها لأنها ابتدائية (يعلمون) مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر كانوا وجواب لو محذوف(١).

◙ المعنى العام للآية:

✍ **قال ابن عباس** ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ قال: «إنهم قوم من أهل مكة هاجروا إلىٰ رسول الله بعد ظُلْمهم ظَلَمَهم المشركون» وقيل نزلت في أبي جندل بن سهيل. وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ قال: هؤلاء أصحاب محمد ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم حتىٰ لحق طوائف منهم بأرض الحبشة ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة وجعل لهم أنصارا من المؤمنين. وأخرج ابن جرير عن الشعبي في قوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ ﴾ قال: المدينة. وأخرج ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ ﴾ قال: لنرزقنهم في الدنيا رزقا حسنا وأخرج ابن أبي حاتم(٢)عن أبان بن تغلب(٣) قال: كان الربيع بن خيثم(١) يقرأ هذا الحرف في

---

(١) ينظر الجدول في إعراب القرآن (١٤/ ٣٢٢). المجتبىٰ من مشكل إعراب القرآن، الخراط (٢/ ٥٨٠). إعراب القرآن للدعاس (٢/ ١٦٠).

(٢) أبو محمد عبد الرحمن بن محمد أبي حاتم التميمي الحنظلي الرازي، ولد سنة ٢٤٠هـ. حافظ للحديث، من كبارهم. كان منزله في درب حنظلة بالري، وإليهما نسبته. له تصانيف، منها الجرح والتعديل، والتفسير، توفي سنة ٣٢٧هـ. ينظر الأعلام للزركلي (٣/ ٣٢٤).

(٣) أبو سعد أبان بن تغلب بن رياح القاري الربعي الكوفي، من أهل الكوفة، روىٰ عن منهال بن عمرو والحكم وأبي إسحاق وروىٰ عنه شعبة وابن عيينة وغيرهم، ثقة تكلم فيه للتشيع توفي سنة ١٤٠هـ. ينظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (٢/ ٢٩٦). الثقات لابن حبان (٦/ ٦٧).

النحل ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ ﴾ ويقرأ حمزة والكسائي وخلف في العنكبوت (لنثوينهم من الجنة غرفا)(٢) ويقول: التنبؤ في والثواء في الآخرة.

✍ **وقال القشيري** في قوله من هاجر أي - في الله- عن أوطان السوء أبدله الله في جوار أوليائه ما يكون له في جوارهم معونة علىٰ الزيادة في صفاء وقته، ومن هجر أوطان الغفلة مكنه الله من مشاهد الوصلة، ومن فارق مجالسة المخلوقين، وانقطع بقلبه إليه- سبحانه- باستدامة ذكره. والمهاجرة في الأصل مصارمة الغير ومتاركته واستعملت في الخروج من دار الكفر إلىٰ دار الإيمان أي والذين هجروا أوطانهم وتركوها في الله تعالىٰ وخرجوا من بعد ما ظلموا أي من بعد ظلم الكفار إياهم(٣).

وهنا يعرض في الجانب المقابل للمنكرين الجاحدين، لمحة عن المؤمنين المصدقين، الذين يحملهم يقينهم في الله والآخرة علىٰ هجر الديار والأموال في الله، وفي سبيل الله: فقال ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.. فهؤلاء الذين هاجروا من ديارهم وأموالهم، وتعروا عما يملكون وعما يحبون، وضحوا بدارهم وقرب عشيرتهم والحبيب من ذكرياتهم.. هؤلاء يرجون في الآخرة عوضا عن كل ما خلفوا وكل ما تركوا، وقد عانوا الظلم وفارقوه. فإذا كانوا قد

---

(١) أبو يزيد الربيع بن خيثم الثوري الكوفي، الإمام القدوة، مخضرم روىٰ عن ابن مسعود وأبي أيوب وعمرو بن ميمون وروىٰ عنه الشعبي والنخعي قال له ابن مسعود لو رآك النبي لأحبك. وكان يعد من عقلاء الرجال، توفي سنة ٦٤هـ. سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٥٨).

(٢) سورة العنكبوت، الآية، (٥٨).

(٣) ينظر الدر المنثور، السيوطي (٥/ ١٣١). تفسير القشيري (٢/ ٢٩٨). روح المعاني، الألوسي (٧/ ٣٨٤).

خسروا الديار فـ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ﴾ ولنسكننهم خيرًا مما فقدوا ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ لو كان الناس يعلمون. هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ واحتملوا ما احتملوا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لا يشركون به أحدًا في الاعتماد والتوجه والتكلان(١).

والمعنىٰ: والذين فارقوا دورهم وأوطانهم وهم صحابة النبي - ﷺ - الذين ظلمهم أهل مكة في بداية الدعوة وعذبوهم وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم بغير حق، حتىٰ لحق بعضهم بالحبشة، وكذلك كل من تبعهم وسار علىٰ طريقهم في الهجرة بدينه لتبليغه وأوذي من أجله. هؤلاء المؤمنين بالله وحده، والمعادين للمشركين في الله وفي سبيل نصرة دين الله، من بعد ما أوذوا وظلمهم المشركون في ذات الله. هؤلاء لهم جزاء من الله وأجر عند الله وهو ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾. أي: لنسكنهم ولندخلنهم مسكنا صالحا في الدنيا. وقد بوأهم الله - عَزَّوَجَلَّ - المدينة بعد ذلك، فجعلها لهم دار هجرة وجعل لهم أنصارا من المؤمنين وهم الأوس والخزرج، ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ﴾ وهو الجنة. والآية نزلت فيمن هاجر من المسلمين من مكة إلىٰ أرض الحبشة، لأن هذه الآية أنزلت بمكة.

وليست الهجرة في هذا الآية هي المقصودة بالهجرة إلىٰ المدينة، بل قُصد بها المهاجرين إلىٰ أرض الحبشة، بدليل ما جاء بعدها. {لنبوئنهم في الدنيا [حسنة] المدينة. ومعنىٰ بوأت فلانا منزلا: أي أحللته فيه، ومنه قوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ (٢) وقيل: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ﴾ هو النصر والفتح»(٣).

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٤/ ٢١٧٢).

(٢) سورة يونس، الآية (٩٣).

(٣) الهداية الىٰ بلوغ النهاية (٦/ ٣٩٩٥).

وقيل: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي لنسكننهم دارًا حسنة خيرًا مما فقدوه عند هجرتهم. قال ابن عباس: بوأهم الله المدينة فجعلها لهم دار هجرة ومكانا آمنا ودولة يحتمون بها ويبلغون عن طريقها دين الله لعباده. ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي ثواب الآخرة أعظم وأشرف وأكبر لو كان الناس يعلمون. «﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي هم الذين صبروا علىٰ الشدائد والمكاره، فهجروا الأوطان، وفارقوا الإخوان، واعتمدوا علىٰ الله وحده يبتغون أجره ومثوبته وقيل: المراد أكبر من أن يعلمه أحد قبل مشاهدته. ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ في الإحسان إليهم وأعظم أجرا إذا صبروا علىٰ ما أصابهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ ما أعد الله لهم في الآخرة علىٰ صبرهم لزادوا في اجتهادهم علىٰ العبادة وفي صبرهم علىٰ أذىٰ الكافرين وغيرهم»(١).

❐ فيمن نزلت الآية؟

«قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِي ٱللَّهِ ...﴾ اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية علىٰ ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها نزلت في ستة من أصحاب رسول الله ﷺ، بلال، وعمار، وصهيب، وخباب بن الأرت، وعايش، وجبر موليان لقريش، أخذهم أهل مكة فجعلوا يعذبونهم، ليردوهم عن الإسلام، قاله ابن عباس.

والثاني: أنها نزلت في أبي جندل بن سهيل بن عمرو، قاله داود بن أبي هند(٢)

---

(١) صفوة التفاسير، الصابوني (٢/ ١١٨). تفسير الألوسي (٧/ ٣٨٥).

(٢) أبو محمد داود بن أبي هند البصرىٰ واسم أبي هند دينار، مولىٰ بني قشير ثقة جيد الإسناد، وكان رجلا صالحا من خيار أهل البصرة روىٰ عن أنس وابن المسيب وعكرمة والحسن، روىٰ عنه الثوري ويزيد بن هارون ثقة متقن، توفي سنة ١٣٩هـ. ينظر الثقات للعجلي =

والثالث: أنهم جميع المهاجرين من أصحاب رسول الله - ﷺ -، قاله قتادة.

ومعنىٰ ﴿هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ﴾، أي: في طلب رضاه وثوابه من بعد ما ظلموا بما نال المشركون منهم من التعذيب وغيره، لنبوئنهم في الدنيا حسنة وفيها خمسة أقوال أحدها: لننزلنّهم المدينة، روىٰ هذا المعنىٰ عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وقتادة، فيكون المعنىٰ: لنبوئنهم دارا حسنة وبلدة حسنة. والثاني: لنرزقنهم في الدنيا الرزق الحسن، قاله مجاهد(١) والثالث: النصر علىٰ العدو كما حدث في بدر. والرابع: أنه ما بقي بعدهم من الثناء الحسن، وصار لأولادهم من الشرف، وقد روي معناه عن مجاهد، عن ابن أبي نجيح(٢) أنه قال: لنبوئنهم في الدنيا حسنة قال: لسان صادق. والخامس: أن المعنىٰ: لنحسنن إليهم في الدنيا، قال بعض أهل المعاني: فتكون علىٰ هذه الأقوال ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾، علىٰ سبيل الاستعارة، إلا علىٰ القول الأول.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ قال ابن عباس: يعني: الجنة، لو كانوا يعلمون يعني: أهل مكة.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ يعني الذين هاجروا من مكة إلىٰ أرض الحبشة،

(١/ ٣٤٢). الكنىٰ والأسماء للإمام مسلم (٢/ ٧٣١). الثقات لابن حبان (٦/ ٢٧٨).

(١) أبو الحجاج مجاهد ابن جبر المخزومي مولاهم المكي، المقرئ المفسر الحافظ سمع عائشة وأبا هريرة وابن عباس ولزمه مدة وقرأ عليه القرآن وكان أحد أوعية العلم. روىٰ عنه قتادة وعمرو بن دينار والأعمش، وقرأ عليه بن كثير وأبو عمرو بن العلاء وغيرهم. توفي سنة ١٠٣هـ. ينظر تقريب التهذيب، ابن حجر (ص: ٥٢٠). طبقات الحفاظ للذهبي (١/ ٧١).

(٢) ابن أبي نجيح هو عبد الله بن يسار المكي أبو يسار الثقفي مولىٰ الأخنس الثقفي، أحد الثقات. قال يعقوب بن شيبة هو ثقة قدري رُمِي بالقدر وربما دلس، روىٰ له الجماعة. توفي سنة ١٤٠هـ. ينظر الوافي بالوفيات (١٧/ ٣٦٢). الطبقات الكبرىٰ ابن سعد (١/ ٢٠٢).

لنبوئنهم في الدنيا حسنة هذا وعد من الله أن ينزلهم بقعة حسنة، وهي المدينة التي استقروا بها فيما بعد، وقيل: إن حسنة صفة لمصدر أي نبوئنهم تبوئة حسنة. الذين صبروا هذا وصف للذين هاجروا، ويحتمل إعرابه أن يكون نعتا، أو علىٰ تقدير: هم الذين، أو مدح الذين(١).

ومعنىٰ الهجرة هي ترك الأوطان والأهل والقرابة في الله أو في دين الله، وترك السيئات. وقيل: «في» بمعنىٰ اللام، أي لله. من بعد ما ظلموا أي عذبوا في الله. ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ ما بقي لهم في الدنيا من الثناء، وما صار فيها لأولادهم من الشرف. وكل ذلك اجتمع لهم بفضل الله، والحمد لله. ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي وللأجر في الدار الآخرة أكبر عند الله يوم القيامة، والمقصود أي أكبر من أن يعلمه أحد قبل أن يشاهده، كقوله تعالىٰ «وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا». ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كان هؤلاء الظالمون الذين يعذبون المؤمنين في مكة يعلمون ذلك. وقيل: هو راجع إلىٰ المؤمنين. أي لو رأوا ثواب الآخرة وعاينوه لعلموا أنه أكبر من حسنة الدنيا التي هي المدينة دار الهجرة(٢).

والذين هاجروا من مكة إلىٰ الحبشة ثم إلىٰ المدينة في طاعة الله من بعد ما ظلموا من كفار مكة وعذبوا عذابا شديدا منهم، لنبوئنهم في الدنيا حسنة أي: لننزلنهم بالمدينة ولنعطينهم الغنيمة كما حدث في غزوة بدر، فهذا الثواب في الدنيا ولأجر الآخرة أي: الجنة ومجاورة النبيين والصديقين والشهداء أكبر أي: أفضل لو كانوا يعلمون أي: يصدقون بالثواب. ثم نعتهم فقال: الذين صبروا علىٰ العذاب وتوكلوا علىٰ ربهم. أي: يثقون به ولا يثقون بغيره، منهم: بلال بن رباح، وعمار بن ياسر، وصهيب بن سنان، وخباب بن الأرت {ظلموا} ظلمهم أهل مكة بتعذيبهم

(١) ينظر التسهيل، ابن جزي (١/ ٤٢٦). روح المعاني، الألوسي (٧/ ٣٨٥).
(٢) ينظر تفسير القرطبي (١٠/ ١٠٧).

أو بإخراجهم إلىٰ الحبشة بعد العذاب»(١).

قوله تعالىٰ: {حسنة} فيها أوجه، أحدها: أنها نعت لمصدر محذوف، أي: تبوئة حسنة. والثاني: أنها منصوبة علىٰ المصدر الملاقي لعامله في المعنىٰ؛ لأن معنىٰ (لنبوئنهم): لنحسنن إليهم. الثالث: أنها مفعول ثان لأن الفعل قبلها مضمن معنىٰ: لنعطينهم (حسنة) صفة لموصوف محذوف، أي: دارا حسنة، وفي تفسير الحسن: دارا حسنة، وهي المدينة. وقيل: تقديره: منزلة حسنة وهي الغلبة علىٰ أهل المشرق والمغرب وقيل: حسنة هي المفعول بنفسها من غير حذف موصوف.

وعلىٰ قراءة أمير المؤمنين وابن مسعود لنثوينهم بالثاء المثلثة وإلياء، مضارع أثوىٰ المنقول بهمزة التعدية من ثوىٰ بمعنىٰ أقام، وقرئ بذلك في السبع لكن في سورة العنكبوت. حسنة علىٰ ما تقدم. ويجوز أن يكون علىٰ نزع الخافض، أي: في حسنة.

والموصول مبتدأ، والجملة من القسم المحذوف وجوابه خبره، ويجوز في الذين النصب علىٰ الاشتغال بفعل مضمر، أي: لنبوئن الذين. وقوله: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ يجوز أن يعود الضمير علىٰ الكفار، أي: لو كانوا يعلمون ذلك لرجعوا مسلمين، أو علىٰ المؤمنين، أي: لاجتهدوا في الهجرة والإحسان، كما فعل غيرهم.

وقيل إن ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾ صفة للمصدر أي تبوئة حسنة أو لنبوئنهم مباءة حسنة وهي المدنية حيث آواهم أهلها ونصروهم ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾ الوقف لازم عليه لأن جواب ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ محذوف والضمير للكفار أي لو علموا ذلك لرغبوا في الدين أو للمهاجرين أي لو كانوا يعلمون لزادوا في

(١) تفسير العز بن عبد السلام (٢/ ١٩١) بحر العلوم، السمرقندي (٢/ ٢٧٤).

اجتهادهم وصبرهم(١).

✍ **قال الزمخشري:** ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ هم رسول الله - ﷺ - وأصحابه، ظلمهم أهل مكة ففروا بدينهم إلىٰ الله، فكان منهم من هاجر إلىٰ الحبشة ثم إلىٰ المدينة فجمع بين الهجرتين. ومنهم من هاجر إلىٰ الحبشة فقط، ومنهم من هاجر إلىٰ المدينة. وقيل: هم الذين كانوا محبوسين معذبين بعد هجرته - ﷺ -، وكلما خرجوا تبعوهم فردوهم: منهم بلال، وصهيب، وخباب، وعمار. لنبوأنهم تبوئة حسنة. وقيل: لننزلنهم في الدنيا منزلة حسنة، وهي الغلبة علىٰ أهل مكة الذين ظلموهم كما حدث في بدر وغيرها، وعلىٰ العرب قاطبة كما حدث في فتح مكة ثم ما تلاها، وعلىٰ أهل المشرق والمغرب كما حدث في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وما بعد ذلك من فتوحات لبلاد الفرس والروم. وعن عمر رضي الله عنه أنه كان إذا أعطىٰ رجلًا من المهاجرين عطاء قال: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك ربك في الدنيا، وما ذخر لك في الآخرة أكثر. وقيل: لنبوأنهم مباءة حسنة وهي المدينة، حيث آواهم أهلها ونصروهم. لو كانوا يعلمون الضمير للكفار، أي: لو علموا أن الله يجمع لهؤلاء المستضعفين في أيديهم الدنيا والآخرة، لرغبوا في دينهم. ويجوز أن يرجع الضمير إلىٰ المهاجرين، أي: لو كانوا يعلمون ذلك لزادوا في اجتهادهم وصبرهم. الذين صبروا أو أعني الذين صبروا، وكلاهما مدح، أي: صبروا علىٰ العذاب وعلىٰ مفارقة الوطن الذي هو حرم الله المحبوب في كل قلب، فكيف بقلوب قوم هو مسقط رؤوسهم، وعلىٰ المجاهدة وبذل الأرواح في سبيل الله)(٢).

❐ ثانيًا: موضع الالتفات من الغيبة إلى التكلم في الآية الكريمة:

من صور الالتفات التي جاءت في القرآن الكريم ما ورد في قوله تعالىٰ: جاء

---

(١) ينظر الدر المصون، السمين الحلبي (٧/ ٢٢٠). تفسير النسفي،(٢/ ٢١٣).

(٢) الكشاف، الزمخشري (٢/ ٦٠٧).

الالتفات في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُ ﴾(١) حيث ورد الالتفات في قوله تعالىٰ ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ﴾ بصيغة التكلم حيث عدل عن صيغة الغيبة في قوله تعالىٰ: ﴿فِي ٱللَّهِ ﴾، ومقتضىٰ الظاهر أن يقال: (لَيُبَوِّئَنَّهُمْ)، ليوافق ما قبله في سياق الآية، وهذا التفات في غاية الروعة والجمال الخطابي، حتي لا يصاب السامع بالملل من الاستمرار علىٰ أسلوب واحد إنما يحسن الانتقال من بعضها إلىٰ بعض، نقلا معنوياَ أو لفظياَ.

والمتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب الالتفات من ضمير الخطاب إلىٰ ضمير الغيبة هو زيادة تأكيد المعنىٰ ونقل هذا الوعد العظيم وهذه البشرىٰ السارة من سبحانه بنفسه إلىٰ المهاجرين وكذلك من سار علىٰ دربهم، فالبشرىٰ بالشيء الطيب الحسن لها وقعها، وخاصة إذا كان هذا العطاء للمهاجرين الأوائل، وهم من ضحوا بأموالهم وديارهم وأهلهم من أجل نصرة الحق الذي جاء به النبي - ﷺ -، فكانت الغاية من سبب الالتفات هو تأكيد المعني في نفوس أهل الايمان. وهذا ما كشفته الدراسة في آراء العلماء فيما سبق.

❐ رابعًا: الخلاصة في بيان الالتفات:

تناول أهل التحقيق من المفسرين السر في الالتفات من ضمير الخطاب إلىٰ ضمير الغيبة بتوضيح سر الالتفات: «في قوله تعالىٰ ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ ﴾ حيث عدل من الغيبة إلىٰ المتكلم، وتأمل معي سياق الآية، ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾، وهذا الالتفات لتأكيد وعد الله سبحانه وتعالىٰ للمؤمنين من المهاجرين الأوائل ومن سار في طريقهم إلىٰ قيام الساعة، بخيري الدنيا والآخرة ولتعظيم أمره سبحانه والدفاع عن دينه

(١) سورة النحل، الآية، (٤١).

والتضحية بكل غال ونفيس في سبيل نصرته. «ولما كانت الهجرة بترك الأوطان والسكن، جاء أجر المهاجرين بتهيئة السكن لهم ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ ... لَنُبَوِّئَنَّهُمْ ﴾، وهذا ما يسمىٰ في المحسنات اللفظية بالطباق»(١) لذا كان سر الالتفات هو تأكيد وعد المؤمنين بخيري الدنيا والاخرة ولتعظيم الأمر الالهي.

يظهر من خلال ما سبق أن السر في الالتفات في الآية الكريمة من الغيبة للتكلم إنما هو لزيادة تأكيد هذا المعنىٰ ونقل هذا الوعد العظيم وهذه البشرىٰ السارة للمؤمنين، ونقل هذا الوعد العظيم لمن ضحي بنفسه وماله وداره وأهله في سبيل نصرة الحق ورفع رايته من الله سبحانه بنفسه إلىٰ المهاجرين دون واسطة، ولذلك نجد أن الله عَزَّوَجَلَّ زف لهم هذه البشري بنفسه إلىٰ المهاجرين الأوائل، والإخبار عن الماضي بالمستقبل أبلغ وأوقع في النفس من الإخبار بالماضي نفسه، ولذلك أكمل الله تعالىٰ هذه الصيغة في الآية التي تليها في قوله تعالىٰ وعلىٰ ربهم يتوكلون والذي يظهر هنا أن المعنىٰ علىٰ المضي، والتعبير بصيغة المضارع إنما جاء لاستحضار تلك الصورة البليغة البديعة حتىٰ كأن السامع لها هو من يشاهدها. فظهرت صورة الالتفات في غاية الروعة والجمال الخطابي، حيث جاء أسلوب الالتفات حتىٰ لا يسأم السامع من الاستمرار علىٰ ضمير الخطاب أو ضمير المخاطب أو ضمير الغيبة، إنما يحسن الانتقال من بعضها إلىٰ بعض وهذا ما يتميز به الاسلوب القرآني.

(١) ينظر: التفسير البياني، لسامي القدومي،(ص ٨٣).

النموذج الثاني: في الالتفات عن الغيبة إلى التكلم

قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾(١).

أولا: تفسير الآية الكريمة والقراءات الواردة فيها.

القراءات التي وردت في الآية:

قرأ خلف عن حمزة قوله تعالىٰ (إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ) إدغام بغير غنة. وقرأ يعقوب (فارهبوني) بإثبات الياء والباقون بحذفها.

المعنى العام للآية:

أمر الله تعالىٰ عباده بعبادته وحده لا شريك له، وقد أوجب الله ذلك علىٰ الجميع الكفار وغيرهم ودلل لهم علىٰ ذلك بانفراده بالنعم السابق ذكرها فالواجب عليهم وحدانيته وعبادته فقال: ﴿ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ﴾ أي: لا تجعلوا له شريكا في إلهيته، وذلك لأنه سبحانه «﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ متوحد في صفاته العظيمة متفرد بأفعاله كلها فلا يُسأل عما يفعل، فكما أنه الواحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلتوحدوه أيها العباد في عبادته، لذا قال لهم: ﴿ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ أي: خافوني وحدي وامتثلوا أمري، واجتنبوا نهيي من غير أن تشركوا بي شيئًا من مخلوقاتي التي خلقتها، فإنها كلها لله تعالىٰ مملوكة له، وقد جاء النهي في الآية الكريمة ﴿ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ﴾ نتيجة لخروج الإنسان عن مراد ربه سبحانه، والعجيب أن الإنس والجن هم المختارون في الكون كله لعبادة الله لتفضيلهم بالعقل دونا عن كل المخلوقات، ومع ذلك لم يشذ من خلق الله غيرهما.

---

(١) سورة النحل، الآية، (٥١).

✍ **يقول الشيخ الشعراوي**: «فالسموات والأرض والجبال كان لها اختيار، وقد اختارت التسخير من بداية الأمر، ومع ذلك فهي مسخرة وتؤدي مهمتها لخدمة الإنسان، وكان يكفي في الآية الكريمة أن يقول: لا تتخذوا إلهين؛ لأنها دلت علىٰ العدد وعلىٰ المعدود معا، ولكن الحق تبارك وتعالىٰ أراد هذا تأكيدا للأمر العقدي لأهميته، وهذا من أساليب العرب إذا أحبوا تأكيد الكلام أن يأتوا بعده بالمراد. فبعد ما ثبت أن كل ما في الكون خاضع لله- سبحانه وتعالىٰ-، ومنقاد لأمره أتبع ذلك بالنهىٰ عن الشرك، ببيان بعض فضائح العرب المشركين وأعمالهم علهم يرجعون ويثوبون إلىٰ رشدهم، فقال - سبحانه- ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ فالألوهية منحصرة في الذات الأقدس- جل جلاله-.

وقد يقال: ما فائدة زيادة اثنين بعد قوله إلهين، وزيادة واحد بعد قوله إله؟ وقد قالوا في الجواب: إن الزيادة لأجل المبالغة في التنفير من اتخاذ الشريك حيث قال:

إلهين اثنين، وكانت زيادة (واحد) دفعا لتوهم أن المراد إثبات الألوهية دون الوحدة، وخلاف المشركين منصب علىٰ الوحدة في الإله. إن كنتم ترهبون شيئا في الوجود فإياي وحدي فارهبون(١).

ولما كان التوحيد هو أعظم ما أمر الله به عباده من جن وإنس، وكان العصيان فيه هو أعظم المعاصي، وكان الله سبحانه قد أكثر الترهيب والتخويف من عصيانه، وأخبر سبحانه بأن الملائكة تخافه، والملائكة هم أعظم الموحدين له بعد الأنبياء، كما أنهم من أعظم المخلوقات سجودًا له وخشوعًا من جميع أهل السماوات والأرض، «وكانت هذه الآيات من أعظم أدلة التوحيد، أتبعها - سبحانه وتعالىٰ - عطفًا علىٰ {وأنزل إليك الذكر} ليتظافر علىٰ ذلك أدلة العقل والنقل أردف بقوله تعالىٰ: {وقال الله} فعبر لأجل تعظيم المقام بالاسم الأعظم الخاص الذي بنيت

(١) ينظر: بتصرف تفسير الشعراوي (١٣/ ٧٩٨٧).

عليه السورة: {لا تتخذوا} أي لا تكلفوا فطركم الأولىٰ السليمة المجبولة علىٰ معرفة أن الإله واحد إلىٰ أن تأخذ في اعتقادها {إلهين} بذلك وإن دلت عليه الأدلة، ويجوز وهو أقرب - أن يعطف علىٰ قوله: {وقال الذين أشركوا} تبكيتا لهم بأنهم احتجوا بحكمه، ولم يبادروا إلىٰ امتثال أمره»(١).

قوله (وقال الله) أي لجميع المكلفين من الإنس والجن: (لا تتخذوا إلهين اثنين) أي لا تعبدوا الله والأصنام معا. ولما بين الله تعالىٰ أولا أن كل ما سوىٰ الله سواء كان من عالم الأرواح، أو من عالم الأجسام فهو منقاد خاضع لجلال الله تعالىٰ أتبعه في هذه الآية بالنهي عن الشرك. والمقصود من التكرير تأكيد التنفير عن الإشراك بالله، وتكميل وقوف العقل علىٰ ما فيه من القبح إنما هو إله واحد، أي لما دلت الدلائل السابقة علىٰ أنه لا بد للعالم من الإله وقد ثبت أن وجود الإلهين محال ثبت أنه لا إله إلا الواحد الأحد، فإياي فارهبون»(٢).

ثم لما أشبع القول في إبطال تعدد الآلهة الشائع في جميع قبائل العرب، وأتبع بإبطال الاختلاق علىٰ الرسول ﷺ والقرآن، نقل الكلام إلىٰ إبطال نوع آخر من الشرك متبع عند قبائل من العرب وهو الإشراك بإلهية أصلين للخير والشر، تقلدته قبائل العرب المجاورة لبلاد فارس والساري فيهم سلطان كسرىٰ وعوائدهم، مثل بني بكر بن وائل وبني تميم، فقد دان منهم كثير بالمجوسية، أي المزدكية والمانوية في زمن كسرىٰ أبرويز وفي زمن كسرىٰ أنوشروان، والمجوسية تثبت عقيدة بإلهين إله للخير وهو النور، وإله للشر وهو الظلمة، فإله الخير لا يصدر منه إلا الخير والإنعام، وإله الشر لا يصدر عنه إلا الشر والآلام(٣).

---

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي (١١/ ١٧٥).
(٢) مراح لبيد لكشف معنىٰ القرآن المجيد، محمد بن عمر نووي الجاوي (١/ ٥٩٥).
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور (١٤/ ١٧١).

قوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾(١).

◘ **الإعراب:**

(الواو) استئنافية (قال) فعل ماض (الله) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (لا) ناهية جازمة (تتخذوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون (الواو) فاعل (إلهين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء (اثنين) نعت لإلاهين منصوب وعلامة النصب الياء فهو ملحق بالمثنىٰ وقيل هو توكيد. وقيل: مفعول ثان (إنما) كافة ومكفوفة (هو) ضمير منفصل مبني في محل رفع مبتدأ (إله) خبر مرفوع (واحد) نعت لإله مرفوع مثله (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدر (إياي) ضمير منفصل مبني في محل نصب مفعول به لفعل محذوف يفسره المذكور ويلي الضمير أي إياي ارهبوا (الفاء) زائدة للتزيين (ارهبون) فعل أمر مبني علىٰ حذف النون و(الواو) فاعل، و(النون) للوقاية، و(الياء) المحذوفة ضمير مفعول به، وجملة «قال الله..» لا محل لها استئنافية. وجملة «لا تتخذوا..» في محل نصب مقول القول. وجملة «هو إله واحد..» لا محل لها استئناف بياني. وجملة «إياي فارهبون» في محل جزم جواب شرط مقدر أي: إن نالكم الخوف فارهبوني أنا دون سواي، وجملة: ارهبون المذكورة لا محل لها تفسيرية)(٢).

والمعنىٰ المقصود لا تتخذوا أيها المكلفون بالإيمان والعرفان، إلهين اثنين مستحقين للعبادة والانقياد فكيف بالزيادة؟؟ بل إنما هو ليس في الوجود والشهود إلا إله واحد وهو الذي يُعبد وحده بحق وهو الذي يُرجع إليه في مطلق الوقائع والخطوب وكل شيء وهو وحده مَن يُفوّض إليه كل الأمور وما هو إلّا أنا وحدي المتصف بعموم أوصاف الكمال ونعوت الجلال والجمال، فإيّاي لا غيرىٰ من المخلوقات أو المصنوعات الموجودة من ظلال أسمائي وصفاتي وبلفظ (كُن) فارهبون أنا وحدي وخصوني دون غيري بالخوف مني «والرجاء فيما عندي

(١) سورة النحل، الآية، (٥١).

(٢) الجدول في إعراب القرآن (١٤/ ٣٣٢). التبيان في إعراب القرآن، العكبري (٢/ ٧٩٨).

وارجعوا نحوي عند هجوم البلاء وحلول القضاء إذ لا راد لقضائي الا فضلي وعطائي»(١).

لقد أمر الله ألّا يتخذ الناس إلهين اثنين، إنما هو إله واحد لا ثاني له. ويأخذ التعبير القرآني أسلوب التقرير والتكرير فيتبع كلمة إلهين بكلمة اثنين، ويتبع النهي بالقصر إنما هو إله واحد، ويعقب علىٰ النهي والقصر بقصر آخر «فإياي فارهبون» دون سواي بلا شبيه أو نظير. ويذكر الرهبة زيادة في التحذير، وذلك لأنها القضية الأساسية في العقيدة كلها لا تقوم إلا بها، ولا توجد إلا بوجودها واضحة في النفس كاملة دقيقة لا لبس فيها ولا غموض. إنما هو إله واحد وإنما هو كذلك مالك واحد سبحانه وتعالىٰ»(٢).

✍ **وقال القرطبي** – رَحِمَهُ ٱللَّهُ – في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ قيل إن المعنىٰ لا تتخذوا اثنين إلهين. وقيل: جاء قوله: «اثنين» توكيدا. ولما كان الإله الحق لا يتعدد وأن كل من يتعدد فليس بإله، اقتصر علىٰ ذكر الاثنين، لأنه قصد نفي التعدد. ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ يعني ذاته المقدسة، وقد قام الدليل العقلي والشرعي علىٰ وحدانيته. ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ أي خافون.

والمقصود قال الله للكفار لا تتخذوا لي شريكا فلا تعبدوا معبودين ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ أي: معبود واحد، وأنا ذلك المعبود. ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ أي فاتقون وخافون. فقد أمرهم الله – عَزَّوَجَلَّ – بذلك لأنهم قالوا في الأصنام: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] فأعلمهم أنه لا يجوز أن يعبد غيره. وقوله: «اثنين» تأكيد. كما قال: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ فأكده بلفظ واحد فقوله: لا تتخذوا إلهين اثنين

(١) الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية، النخجواني (١/ ٤٢٨).
(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٢١٧٦).

المقصود من تكريره تأكيد التنفير عنه وتكميل وقوف العقل علىٰ ما فيه من القبح لا تتخذوا إلهين اثنين المقصود منه التنبيه علىٰ حصول المنافاة والمضادة بين الإلهية وبين الاثنينية)(١).

◙ سبب نزولها:

أن رجلًا من المسلمين دعا الله في صلاته ودعا الرحمن، فقال رجل من المشركين: أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون ربًّا واحدًا، فما بال هذا يدعو ربين اثنين؟ فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل. قال الزجاج: ذكر الاثنين توكيد، كما قال تعالىٰ: إنما هو إله واحد. واعلم أنه - سبحانه - لما بين في الآيات الأولىٰ، أن ما سوىٰ الله - تعالىٰ - سواء أكان من عالم الأرواح أم من عالم الأجسام، منقاد وخاضع لجلاله - تعالىٰ - وكبريائه - أتبعه في هذه الآية بالنهىٰ عن الشرك، وببيان أن كل ما سواه واقع في ملكه وتحت تصرفه، وأنه غنيّ عن الكل، فقال - تعالىٰ -: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ أي: وقال الله - تعالىٰ - لعباده عن طريق رسله - عليهم الصلاة والسلام - لا تتخذوا شركاء معي في العبادة والطاعة، بل اجعلوهما لي وحدىٰ، فأنا الخالق لكل شيء والقادر علىٰ كل شيء» (٢).

وقوله ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ معطوف علىٰ قوله - سبحانه - ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وإظهار الفاعل، وتخصيص لفظ الجلالة بالذكر إنما هو للإيذان بأنه - تعالىٰ - متعين الألوهية والمنهىٰ عنه هو الاشراك به، لا أن المنهي عنه هو مطلق اتخاذ إلهين. ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ صفة للفظ إلهين أو مؤكد له، وخص هذا العدد بالذكر، لأنه الأقل، فيعلم انتفاء اتخاذ ما فوقه بالطريق الأولىٰ. وقوله - سبحانه - ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾} بيان وتوكيد لما قبله، وهو مقول لقوله - سبحانه -

---

(١) تفسير القرطبي (١٠/ ١١٣). الهداية الىٰ بلوغ النهاية، مكي ابن أبي طالب (٦/ ٤٠١٠).
(٢) ينظر زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٥٦٤). مفاتيح الغيب، الرازي (٢٠/ ٢١٩).

﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ ﴾ أي وقال الله لا تتخذوا معي في العبادة إلها آخر، وهو المستحق للعبادة إله واحد، والقصر في الجملة الكريمة من قصر الموصوف علىٰ الصفة، أي: الله وحده هو المختص بصفة الوحدانية. وقوله لا تتخذوا إلهين اثنين المشهور أن اثنين وصف لإلهين وكذا لفظ «واحد» في قوله سبحانه: إنما هو إله واحد صفة لإله، وجيء بهما للإيضاح والتفسير لا للتأكيد(١)

وقد نهىٰ - سبحانه - عن الشرك في آيات كثيرة، وأقام الأدلة علىٰ بطلانه ومن ذلك قوله - تعالىٰ - ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ﴾ وقوله ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ والفاء في قوله ﴿ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ واقعة في جواب شرط مقدر و {إيّاي} مفعول به لفعل محذوف يقدر مؤخرا، يدل عليه قوله {فارهبون} والرهبة: الخوف المصحوب بالتحرز، وفعله رَهَب بزنة طَرَب. والمعنىٰ: إن رهبتم شيئا فإيّاي فارهبوا دون غيري، لأني أنا الذي لا يعجزني شيء. وفي الجملة الكريمة التفات من الغيبة إلىٰ الخطاب، للمبالغة في التخويف، إذ تخويف الحاضر أبلغ من تخويف الغائب، لاسيما بعد أن وصف - سبحانه - ذاته بما وصف من صفات القهر والغلبة والكبرياء. وقدم المفعول وهو إيّاي لإفادة الحصر، وحذف متعلق الرهبة، للعموم، أي: ارهبوني في جميع ما تأتون وما تذرون. والمتأمل في هذه الآية الكريمة يراها قد اشتملت علىٰ ألوان من المؤكدات للنهىٰ عن الشرك، والأمر بإخلاص العبادة لله - تعالىٰ - وحده، تارة عن طريق التقرير {وقال الله.. } وتارة عن طريق النهىٰ الصريح، وتارة عن طريق القصر، وتارة عن طريق التخصيص، وذلك لكي يقلع الناس عن هذه الرذيلة النكراء، وهو الشرك به سبحانه، ويؤمنوا بالله الواحد القهار)(٢).

---

(١) ينظر روح المعاني، الألوسي (٧/ ٤٠١).

(٢) التفسير الوسيط د محمد سيد طنطاوي (٢٥٣٠).

ومن هنا يتبين أن جميع الخلق خاضع لله تعالىٰ لذا قال الله لعباده عن طريق رسله – عليهم الصلاة والسلام – لا تتخذوا شركاء معي في العبادة والطاعة، بل اجعلوهما لي وحدي، فأنا الخالق لكل شيء والقادر علىٰ كل شيء.

❐ ثانيًا: موضع الالتفات من الغيبة إلى التكلم في الآية الكريمة:

في قوله ﴿ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ ﴾ للاحتراس من اللبس وعدم الدلالة علىٰ أن المراد الذي يساق إليه الحديث هو العدد، لذلك جاء التأكيد والحصر والقصر بلفظ ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ لوكان لا بد من أن يشفع بما يؤكده كما ورد في الآية، ألا ترىٰ أنك لو قلت إله فقط ولم تؤكده بواحد لم يحسن وخيل إليك أنك تثبت الإلهية لا الوحدانية، فكان لا بد من الاحتراس وهذا من روائع البلاغة التي تتقطع دونها الأعناق.

وهنا التفات عن الغيبة في قوله ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ ﴾ ثم عدل الىٰ الحضور أو التكلم وهو قوله ﴿ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ لأن ذلك أبلغ في الرهبة من أن يقول جريا علىٰ السياق فإياه فارهبون«(١).

وهذه الآية الكريمة إنما هي مبالغة في النهي من الله تعالىٰ لعباده عن الإشراك به ومعناها لا تتخذوا إلهين اثنين فصاعدا، بما ينصه من قوله إنما هو إله واحد. فإياي منصوب بفعل مضمر تقديره فارهبوا إياي فارهبون ولا يعمل فيه الفعل لأنه قد عمل في الضمير المتصل به.

والاسم الحامل لمعنىٰ الإفراد والتثنية دال علىٰ شيئين: علىٰ الجنسية، والعدد المخصوص، فإذا أريدت الدلالة علىٰ أن المعنىٰ به منهما، والذي يساق إليه الحديث هو العدد شفع بما يؤكده، فدل به علىٰ القصد إليه والعناية به. إياي

---

(١) ينظر إعراب القرآن وبيانه (٥/ ٣١٦).

فارهبون نقل الله سبحانه الكلام عن الغيبة إلىٰ التكلم، وجاز هذا لأن الغالب هو المتكلم، وهو من طريقة الالتفات، وهو أبلغ في الترهيب من قوله: وإياه فارهبوه، ومن أن يجيء ما قبله علىٰ لفظ المتكلم(١).

والمتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب الالتفات هو المبالغة في التخويف والترهيب، حيث جاء بالالتفات من الغيبة إلىٰ الحضور لأنه أبلغ في الترهيب، والرهب خوف مع حزن واضطراب، فالمقصود من قوله ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ هو التنبيه علىٰ حصول المنافاة، والمضادة بين الإلهية، وبين الاثنينية. ولما ذكر هذا الكلام قال: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾، أي: إنه لما دل الدليل علىٰ أنه لا بد للعالم من الإله، وثبت أن القول بوجود إلهين محال؛ ثبت أنه لا إله إلا الواحد الأحد. ثم قال ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ وهذا رجوع من الغيبة إلىٰ التكلم. والتقدير أنه لما ثبت أن الإله واحد، وأن المتكلم بهذا الكلام أنما هو إله؛ ثبت حينئذ أنه لا إله للعالم إلا المتكلم بهذا الكلام سبحانه وتعالىٰ، فحينئذ يحسن منه أن يعدل من الغيبة إلىٰ الحضور؛ ويقول: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾. قوله تعالىٰ: ﴿فَإِيَّٰيَ﴾ منصوب بفعل مضمر مقدر بعده، يفسره هذا الظاهر، أي: إياي ارهبوا فارهبون»(٢).

وقوله: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ يفيد الحصر، وهو أن لا يرهب الخلق إلا منه، وأن لا يرغبوا إلا في فضله وإحسانه، وذلك لأن الموجود إما قديم وإما محدث، أما القديم الذي هو الإله فهو واحد، وأما ما سواه فمحدث، وإنما حدث بتخليق ذلك القديم وبإيجاده، وإذا كان كذلك فلا رغبة إلا إليه ولا رهبة إلا منه، فبفضله تندفع الحاجات وبتكوينه وبتخليقه تنقطع الضرورات(٣).

---

(١) ينظر تفسير المحرر الوجيز ابن عطية (٣/ ٣٩٩). الكشاف، الزمخشري (٢/ ٦١٠).
(٢) اللباب في علوم الكتاب (١٢/ ٧٨). بيان المعاني (٤/ ٢٢٨).
(٣) تفسير مفاتيح الغيب، الرازي (٢٠/ ٢١٩).

ووقع في ضمير فإياي التفات من الغيبة إلىٰ التكلم لمناسبة انتقال الكلام من تقرير دليل وحدانية الله علىٰ وجه كلي إلىٰ تعيين هذا الواحد أنه الله منزل القرآن تحقيقا لتقرير العقيدة الأصلية. وفي هذا الالتفات اهتمام بالرهبة لما في الالتفات من هزّ فهم المخاطبين. ولما نهىٰ عن اتخاذ الإلهين، واستلزم النهي عن اتخاذ آلهة، أخبر تعالىٰ أنه إله واحد كما قال: وإلهكم إله واحد بأداة الحصر، وبالتأكيد بالوحدة..

﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا اثنين، وهذا الإله الواحد هو الله سبحانه وتعالىٰ لا شريك، وجاء الإخبار عن توحيد الله مؤكدا بـ (إنما)؛ لأن المشركين منكرين لتوحيد الله، فأكد لهم التوحيد ليقرع آذانهم، لعله يقرع قلوبهم. ثم نقل الكلام سبحانه من الغيبة إلىٰ التكلم علىٰ طريقة الالتفات لزيادة الترهيب، فقال: فإياي فارهبون أي: إن كنتم راهبين شيئا فإياي فارهبون لا غيري(١).

لأن المسألة ما دامت مسألة رهبة، فالرهبة من المتكلم خير من الرهبة من الغائب.. وكأن السياق يقول: ها هو سبحانه أمامك، وهذا أدعىٰ للرهبة

﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ قصر فيه الموصوف علىٰ الصفة، والموصوف هو: الله سبحانه وتعالىٰ، والصفة هي توحد الإلهية، أي: الله مختص بصفة توحد الإلهية. (فإياي فارهبون)، أي: ارهبوني وحدي ولا ترهبوا معي أحدا، وفهم هذا الحصر من تقديم المفعول به (إياي)(٢).

في قوله إنما هو إله واحد للدلالة علىٰ أن المقصود اثبات الوحدانية دون الالهية والتنبيه علىٰ أن الوحدة من لوازم الالهية فإياي فارهبون فيه التفات من الغيبة الىٰ التكلم مبالغة في الترهيب وتصريحا بالمقصود كانه قيل فانا ذلك الإله الواحد فإياي

---

(١) ينظر البحر المحيط، أبو حيان (٦/ ٥٤٤). فتح القدير للشوكاني (٣/ ٢٠٢)

(٢) التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني (ص: ١٠٣).

ارهبوا فارهبوني لا غير[١].

(١) التفسير المظهري (٥/ ٣٤٥).

ثالثا: الخلاصة في بيان الالتفات عن الغيبة للتكلم.

﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ والمعنىٰ: أنه لما دلت الدلائل السابقة علىٰ أنه لا بد للعالم من الإله، وثبت أن القول بوجود الإلهين محال، ثبت أنه لا إله إلا الواحد الأحد الحق الصمد. ثم قال بعده: فإياي فارهبون وهذا رجوع من الغيبة إلىٰ الحضور، والتقدير: أنه لما ثبت أن الإله واحد وثبت أن المتكلم بهذا الكلام إله، فحينئذ ثبت أنه لا إله للعالم إلا المتكلم بهذا الكلام، فحينئذ يحسن منه أن يعدل من الغيبة إلىٰ الحضور، ويقول: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرۡهَبُونِ﴾.

«وهنا دقيقة أخرىٰ وهو أن قوله: فإياي فارهبون يفيد الحصر، وهو أن لا يرهب الخلق إلا منه، وأن لا يرغبوا إلا في فضله وإحسانه». فإياي فارهبون نقل من الغيبة إلىٰ التكلم مبالغة في الترهيب وتصريحا بالمقصود فكأنه قال: فأنا ذلك الإله الواحد فإياي فارهبون لا غير(١).

وقوله ﴿إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾، إلهين: مفعول أول، واثنين: تأكيد، والثاني: محذوف، أي: معبودين لكم، وفائدة التأكيد التنبيه علىٰ أن المقصود هو النهي عن الاثنينية تنبيها علىٰ أن الاثنينية تنافي الألوهية والغرض المسوق له الكلام في الأول: النهي عن اتخاذ الاثنين من الإله لا إثبات جنسه، فوصف الإلهين باثنين وإله بواحد إيضاحا لهذا الغرض وتفسيرا له. ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ التفات من الغيبة إلىٰ التكلم لتربية المهابة وإلقاء الرهبة في القلوب ولذلك قدم وكرر الفعل أي إن كنتم راهبين شيئًا فإياي ارهبوا فارهبوا لا غير فإني ذلك الواحد الذي يسجد له ما في السموات والأرض»(٢).

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب، للرازي، (٢٠/ ٢٢٠). أنوار التنزيل، البيضاوي (٣/ ٢٢٩)

(٢) البحر المديد، ابن عجيبة، (٣/ ١٣٥). إرشاد العقل السليم، أبو السعود، (٥/ ١١٩).

وفي قوله ﴿فَإِيَّـٰىَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ التفات عن الغيبة، وذلك مبالغة في الترهيب. وفي قوله تعالىٰ: ﴿فَإِيَّـٰىَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ هو دعوة إلىٰ الله الواحد الأحد، الذي يستحق العبودية، وهو الذي يخافه الملائكة، وهم أقرب الخلق إليه، فكيف لا يخاف ولا يرهب من هم دون الملائكة من خلقه؟(١).

والسر في الالتفات هنا هو التنبيه والإيقاظ وتطرية الإصغاء. فالالتفات من الغيبة في قوله: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ إلىٰ التكلم في قوله: ﴿فَإِيَّـٰىَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ ولم يقل: وهو فارهبوه.

ولأن تخويف الحاضر مواجهة أبلغ من تخويف الغائب سيما بعد وصفه بالوحدة والألوهية، وكذلك لتربية المهابة وإلقاء الرهبة في القلوب ولذلك قدم وكرر الفعل أي إن كنتم راهبين شيئًا فإياي ارهبوا.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

(١) محاسن التأويل، القاسمي، (٦/ ٣٧٨). التفسير القرآني للقرآن (٧/ ٣٠٧).

النموذج الثالث: في الالتفات عن الغيبة إلى التكلم.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾(١).

❐ أولا: تفسير الآية الكريمة موضع الالتفات والقراءات الواردة فيها.

◙ القراءات الواردة في الآية:

قرأ شعبة عن عاصم {ننبت لكم} بالنون أخبار الله عن نفسه بلفظ ننبت بنون العظمة التي للمتكلم، وهذا هو المقصود من الآية.

وقرأ الباقون بالياء أي ينبت الله وحجتهم قول الله قبلها ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ فالحجة لمن قرأه بالياء: أنه أخبر به عن الله عَزَّوَجَلَّ لتقدم اسمه في أول الكلام. والحجة لمن قرأه بالنون: أنه جعله من إخبار الله عَزَّوَجَلَّ عن نفسه بنون الملكوت(٢).

◙ المفردات:

(هو الذي أنزل من) الله سبحانه أنزل من جهة (السماء) وهي السُّحُب (ماءً) أي نوعًا من أنواع الماء وهو المطر (لكم منه شراب) هو اسم لما يشرب كالطعام لما يطعم، والمعنىٰ أن الماء النازل من السماء قسمان، قسم يشربه الناس ومن جملته ماء الآبار والعيون فإنه من المطر (و) قسم يحصل (منه شجر) ترعاه المواشي.

---

(١) سورة النحل، الآية (١٠، ١١).

(٢) الحجة في القراءات، ابن خالويه (ص:٢٠٩). حجة القراءات، ابن زنجلة (ص:٣٨٦).

✍ **قال الزجاج**: كل ما نبت من الأرض فهو شجر لأن التركيب يدل علىٰ الاختلاط، ومنه تشاجر القوم إذا اختلط أصوات بعضهم بالبعض، ومعنىٰ الاختلاط حاصل في العشب والكلأ وفيما له ساق. وقال ابن قتيبة: المراد من الشجر في الآية الكلأ، وقيل الشجر كل ما له ساق. (فيه تسيمون) أي في الشجر ترعون مواشيكم(١)

◙ الإعراب:

(هو) ضمير منفصل مبني في محل رفع مبتدأ. (الذي) اسم موصول مبني في محل رفع خبر. (أنزل) فعل ماض والفاعل هو (من السماء) جار ومجرور متعلق ب (أنزل). (ما) مفعول به منصوب (اللام) حرف جر. و (كم) ضمير في محل جر متعلق بخبر مقدم. (من) حرف جر و (الهاء) ضمير في محل جر متعلق بحال من شراب (شراب) مبتدأ مؤخر مرفوع. (الواو) عاطفة (منه شجر) مثل منه شراب ومعطوف عليه (فيه) مثل منه متعلق بفعل (تسيمون) وهو مضارع مرفوع.. و (الواو) فاعل.

جملة: {**هو الذي**...} لا محل لها استئنافية.

وجملة: {**أنزل**...} لا محل لها صلة الموصول (الذي).

وجملة: {**لكم منه شراب**} في محل نصب نعت لماء.

وجملة: {**تسيمون**} في محل رفع نعت لشجر.

{**ينبت**} مضارع مرفوع، والفاعل هو (لكم) متعلق ب (ينبت)، (الباء) حرف جر و (الهاء) ضمير في محل جر متعلق بـ (ينبت) والباء سببية، والضمير يعود علىٰ الماء (الزرع) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة (الزيتون،

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، القنوجي (٧/ ٢١٥).

النخيل، الأعناب) أسماء معطوفة علىٰ الزرع بحروف العطف منصوبة مثله (من كل) جار ومجرور متعلق بنعت لمنعوت محذوف أي وشيئا من كل.. ومن تبعيضية (الثمرات) مضاف إليه مجرور (إن) حرف توكيد (في) حرف جر (ذلك) اسم إشارة مبني في محل جر متعلق بمحذوف خبر إن.. و (اللام) للبعد، و (الكاف) للخطاب (اللام) الثانية للتوكيد (آية) اسم إن مؤخر منصوب (لقوم) جار ومجرور نعت لآية. (يتفكرون) مضارع مرفوع.. و (الواو) فاعل.

جملة: {**ينبت**..} لا محل لها استئنافية.

وجملة: {**إن في ذلك لآية**..} لا محل لها استئناف بياني.

وجملة: {**يتفكرون**} في محل جر نعت لقوم(١).

◙ علاقة الآية بسابقتها:

بعد أن ذكر الله نعمَه الكثيرة علىٰ الناس جميعا المسلم وغير المسلم بأنه سخر له الدواب والأنعام، شرع يذكر لهم نعمَه عليهم من إنزال المطر ليشربوا منه وليزرعوا منه.

ولما كان الشجر عاما، شرع سبحانه يفصله تنويعا للنعم وتذكيرا بالتفاوت، إشارة إلىٰ أن الفعل بالاختيار، فقال مبتدئا بالأنفع في القوتية والائتدام والتفكه: {نبت} أي هو سبحانه {لكم} أي خاصة {به} مع كونه واحدا في أرض واحدة {الزرع} الذي تشاهدونه من أقل الشجر مكثا وأصغره قدرا، {والزيتون} الذي ترونه من أطول الأشجار عمرا وأعظمها قدرا.

ولما كانت المنافع كثيرة في شجر التمر، سماه باسمه فقال تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّخِيلَ﴾ ولما كانت المنفعة في الكرم بغير ثمرته تافهة، قال تعالىٰ:

---

(١) ينظر: الجدول في إعراب القرآن (١٤/ ٢٨٨).

﴿وَٱلْأَعْنَٰبَ﴾ وهما من أوسط ذلك ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وأما كلها فلا يكون إلا في الجنة، وهذا الذي في الأرض بعض من ذلك الكل مذكر به ومشوق إليه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي الماء العظيم المحدث عنه وعن فروعه، أو في إنزاله علىٰ الصفة المذكورة ﴿لَءَايَةً﴾ بينة علىٰ أن فاعل ذلك تام القدرة يقدر علىٰ الإعادة كما قدر علىٰ الابتداء، وأنه مختار يفعل ذلك في الوقت الذي يريده.

ولما كان ذلك ممن يحس، وكان شغل الحواس بمنفعته - لقربه وسهولة ملابسته - ربما شغل عن الفكر في المراد به، فكان التفطن لدلالته يحتاج إلىٰ فضل تأمل ودقة نظر، قال تعالىٰ: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي في أن وحدته وكثرة ما يتفرع عنه دليل علىٰ وحدة صانعه وفعله بالاختيار، وأفرد الآية لوحدة المحدث عنه، وهو الماء.

فبين - سبحانه - أن الذي خلق لكم الأنعام وسائر البهائم لمنافعكم ومصالحكم هو وحده الذي أنزل المطر من السماء عذبا زلالا، تشربون أنتم منه وكذلك تزرعون به أشجارا وزروعا، وهذه الأشجار والنباتات هي التي ترعاه أنعامكم ودوابكم، ومن ثم تمدكم باللبن واللحم والأصواف والأوبار والأشعار والجلود وغير ذلك من المنافع.

فقال سبحانه: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾(١).

إن هذا الماء ينزله الله من السماء بقدرته فيحيي به الأرض ويخرج به من جميع أنواع الثمرات والتي هي رزقا لكم ونعمة منه عليكم، وكما أنها نِعم منه فهي أيضا حجة علىٰ مَن كفر به.

---

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١١/ ١١٨).

◙ المعنى:

بدأت الآية الكريمة بقوله (هو الذي أنزل) بالضمير المنفصل (هو) والاسم الموصول (الذي)، ولم يقل سبحانه: «وأنزل» بدون الضمير واسم الموصول، وذلك تأكيدا علىٰ أن منزل الغيث هو الله وحده لا أحد غيره.

فإن قلت لماذا قدم الجار والمجرور (من السماء) في قوله تعالىٰ (أنزل من السماء ماء) ولم يقل أنزل ماءً من السماء؟ جاء التقديم لغرض بياني هو الاختصاص والأهمية والاهتمام به.

فإن قلت لماذا ذكر لفظ السماء والسماء هي المكان المعهود لنزول المطر (الماء). فمن البديهي أن الماء ينزل منها، فلماذا ذكرت (السماء)؟

ذكرت السماء في سياق الآية وذلك لاستحضار صورة الماء النازل من السماء في ذهن السامع استحضارا يتلازم عند المؤمنين باستحضار نِعَم الله التي لا تُحصىٰ ومنها نعمة الماء.

«مِن» في قوله تعالىٰ (منه شراب) للتبعيض؛ وذلك لأننا لا نشرب الماء كله، لكن نشرب ونستخدم بعضه فقط.

أما لفظ «من» في قوله تعالىٰ (ومنه شجر) سببية؛ حيث أن الماء هو سبب الحياة في الشجر وغيره، لذلك أعيد ذكر حرف الجر «من» في قوله تعالىٰ (منه شراب ومنه شجر) ولم تأت الآية بـ «منه شراب وشجر»؛ لاختلاف دلالة الحرف في الموقعين.

◙ الجوانب البلاغية في الآية:

ولماذا قيل (شجر فيه) ولم يقل «منه تسيمون»؟ قيل لأن الرعي يكون بين الأشجار، سواء أكلت الأنعام من الشجر أو ضرب الراعي الشجر لتسقط أوراقها لتأكله الأنعام، وكذلك ترعىٰ الأنعام من الأعشاب التي تكون بين الشجر، ولذلك جاء التعبير بحرف الجر «في» وليس من.

وإن قيل لماذا جاء التعبير في قوله تعالىٰ (ننبت) بالمضارع ونون العظمة التي للمتكلم؟

فلأن الإنبات سنة لله وهي متجددة في كل حين علىٰ هذه الأرض، وهذا من سمات الفعل المضارع التجدد والاستمرار.

وقدم الله ذكر الزروع علىٰ الأشجار؛ لأن الزروع من القمح والأرز والحبوب بأنواعها والبقول وغيرها إنما هي قوام حياة البشر وعليها تتوقف حياتهم وبها تستمر.

اما لماذا رتبت أنواع الأشجار من الأعلىٰ إلىٰ الأدنىٰ من جهة العمر؛ فلأن طول تعمير الشجرة نوع من أنواع النعمة، فشجر الزيتون يعيش مئات السنين، وشجر النخيل يعيش أقل من شجر الزيتون بكثير، وأما الأعناب فأقلهن عمرا.

وتقديم الزرع علىٰ ما عداه لأنه أصل الأغذية وعمود المعاش وتقديم الزيتون لما فيه من الشرف من حيث إنه أدام من وجه وفاكهة من وجه وتقديم النخيل علىٰ الأعناب لظهور أصالتها وبقائها وجمع الأعناب للإشارة إلىٰ ما فيها من الاشتمال علىٰ الأصناف المختلفة وتخصيص الأنواع المعدودة بالذكر مع اندراجها تحت قوله تعالىٰ (ومن كل الثمرات) للإشعار بفضلها وتقديم الشجر عليها مع كونه غذاء للأنعام لحصوله بغير صنع من البشر أو للإرشاد إلىٰ مكارم الأخلاق فإن مقتضاها أن يكون اهتمام الإنسان بأمر ما تحت يده وأكمل من اهتمامه بأمر نفسه أو لأن أكثر المخاطبين من أصحاب المواشي ليس لهم زرع ولا ثمر وقيل المراد تقديم ما يسام لا تقديم غذائه فإنه غذاء حيواني للإنسان وهو أشرف الأغذية.

وجاء التعبير بـ «يتفكرون» وليس بـ «يتذكرون» في قوله (إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون). لأن الأمر ليس ظاهرا ظهور ما يحتاج إلىٰ تذكر فقط، وليس بـ«يعقلون» لأن الأمر لا يحتاج إلىٰ المبالغة في إعمال العقل، بل العبرة بأمر الزرع والثمار تحصل بتفكر وتأمل في حال البذرة ونموها وإثمارها، وكيف أن هذه البذرة انتقلت

من بذرة يابسة إلىٰ زرع يانع وثمار ناضجة، وهذا يقدر عليه عامة الناس.

وجاء التعبير بـ «قوم» في قوله تعالىٰ (لقوم يتفكرون) للإشارة إلىٰ أن المقصودين هم من أصبح التفكر صفتهم التي عليها يجتمعون، ولأجل هذه الصفة المشتركة استحقوا إطلاق «قوم» عليهم، وليسوا ممن تفكر مرة واحدة أو عدة مرات متفرقة، وفي غير ذلك لا يتفكرون، وهذا ما يفيده الفعل المضارع، فإن تفكرهم متجدد متكرر، وليس تفكر واقعة واحدة.

وهنا استئناف لذكر دليل آخر من مظاهر بديع خلق الله تعالىٰ أدمج فيه امتنان بما يأتي به ذلك الماء العجيب من المنافع للناس من نعمة الشراب ونعمة الطعام للحيوان الذي به قوام حياة الناس وللناس أنفسهم.

وصيغة تعريف المسند إليه والمسند أفادت الحصر، أي هو لا غيره. وهذا قصر علىٰ خلاف مقتضىٰ الظاهر، لأن المخاطبين لا ينكرون ذلك ولا يدعون له شريكا في ذلك، ولكنهم لما عبدوا أصناما لم تنعم عليهم بذلك كان حالهم كحال من يدعي أن الأصنام أنعمت عليهم بهذه النعم، فنزلوا منزلة من يدعي الشركة لله في الخلق، فكان القصر قصر إفراد تخريجا للكلام علىٰ خلاف مقتضىٰ الظاهر. وذكر في الماء منّتَين: الشراب منه، والإنبات للشجر والزرع.

وإنما لم يعطف علىٰ جملة لكم منه شراب لأنه ليس مما يحصل بنزول الماء وحده بل لا بد معه من زرع وغرس. وهذا الإنبات من دلائل عظيم القدرة الربانية، فالغرض منه الاستدلال ممزوجا بالتذكير بالنعمة(١).

فإن قيل لم قال ومن كل الثمرات ولم يقل من الثمرات؟ قلت: لأن كل الثمرات لا تكون إلا في الجنة، وإنما أنبت في الأرض بعض من كلها للتذكرة بما هو

---

(١) ينظر: التفسير البياني في سورة النحل، سامي وديع (ص:٢٣). التحرير والتنوير (١٤/ ١١٤)

في الجنة، ومن ثم يتفكرون فيها فينظرون ويستدلون بها علىٰ الله وعلىٰ قدرته وحكمته. وبالتفكر يستدل المتفكر علىٰ أن الأشياء التي غابت عنه ظواهرها بالتفكر والنظر تدرك.

بعد أن ذكر الحيوانات ومنافعها للإنسان من ركوب وأكل وزينة. شرع يتكلم عن الماء ومنافعه للمخلوقات جميعا فقال: هو الذي أنزل من السماء ماء من هنا بدأ يتكلم - سبحانه – عن نوع آخر من النعم الدالة علىٰ توحيده وإفراده بالعبادة. والمراد من الماء نوع منه وهو المطر، ومن السماء إما السحاب علىٰ سبيل الاستعارة أو المجاز المرسل، وإما الجرم المعروف والكلام علىٰ حذف مضاف أي من جانب السماء أو جهتها، وحملها علىٰ ذلك بدون هذا يقتضيه ظاهر بعض الأخبار، ومن علىٰ كل تقدير ابتدائية وهو متعلق بما عنده، وتأخير المفعول الصريح عنه ليظمأ الذهن إليه فيتمكن أتم تمكن عند وروده عليه(١).

لذا يُذكّر الله عباده بشيء من هذه النعم التي لا تحصىٰ فيقول لهم إن ربكم أنبت لكم بالماء الذي أنزل لكم من السماء كل شيء وهذا ما ترونه من زرعكم وزيتونكم ونخيلكم وأعنابكم (ومن كل الثمرات) من كل الفواكه غير ذلك أرزاقا لكم وأقواتا وإداما وفاكهة، نعمة منه عليكم بذلك وتفضلا وحجة علىٰ من كفر به منكم ثم أردف جل ثناؤه: {إن في ذلك} أي إن في إخراج الله بما ينزل من السماء من ماء، ما وصف لكم (لآية) لدلالة واضحة، وعلامة بينة (لقوم يتفكرون) فيعتبرون بمواعظ الله، ويتفكرون في حججه، فيتذكرون وينيبون ويرجعون لله (إن في ذلك) أي في إنزال الماء وإنبات ما فصل (لآية) عظيمة دالة علىٰ تفرده تعالىٰ بالألوهية لاشتماله علىٰ كمال العلم والقدرة والحكمة (لقوم يتفكرون) فإن من تفكر في أن الحبة أو النواة تقع في الأرض وتصل إليها نداوة تنفذ فيها فينشق أسفلها فيخرج منه عروق تنبسط

(١) تفسير الزمخشري (٢/ ٥٩٧). التحرير والتنوير، ابن عاشور (١٤/ ١١٣) تفسير الألوسي (٧/ ٣٤٨).

في أعماق الأرض وينشق أعلاها وإن كانت منتكسة في الوقوع ويخرج منه ساق فينمو ويخرج منه الأوراق والأزهار والحبوب والثمار(١).

❐ ثانيًا: موضع الالتفات من الغيبة إلى التكلم في الآية الكريمة:

قوله تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ... ﴾ هذا الكلام كله علىٰ الغائب، ثم يبدأ في الآية التي تليها ملتفتا عن هذا الأسلوب الغائب إلىٰ المتكلم فيقول سبحانه عن نفسه بنون المتكلم {.. ننبت لكم به الزرع والزيتون..}

قوله تعالىٰ: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ قرأ شعبة عن عاصم «ننبت» بالنون علىٰ التعظيم. والباقون بالياء علىٰ معنىٰ ينبت الله لكم، يقال: ينبت الأرض وأنبتت بمعنىٰ واحد وهنا يعلمنا الله أن النبات لا ينبت وحده، بل يحتاج إلىٰ من ينبته، وأسند- سبحانه- الإنبات إليه فقال: ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ... ﴾ لأنه الفاعل الحقيقي لهذا الإنبات والإخراج للزروع من الأرض: أما غيره- سبحانه- فيلقىٰ الحب في الأرض، ويرجو الثمار والإنبات منه- سبحانه-.

❐ ثالثا: الخلاصة في بيان الالتفات عن الغيبة للتكلم.

وجاء الأسلوب القرآني من الغيبة للمتكلم وذلك بطريق الاستئناف. وإيثار صيغة الاستقبال (ننبت) للدلالة علىٰ التجدد والاستمرار وأنها سنته الجارية علىٰ مر الدهور، أو لاستحضار صورة الإنبات في ذهن السامع وتقديم ننبت لكم للاهتمام به ولإدخال المسرة علىٰ السامع ابتداء. وقرأ الجمهور {ينبت} بالياء من

---

(١) تفسير أبي السعود (٥/ ١٠١).

الثلاثي علىٰ الإسناد إلىٰ الزرع وما عطف عليه (١).

قرأ شعبة {ننبت} بنون العظمة. علىٰ الالتفات من الغيبة الىٰ التكلم، لأن سياق الآية من قبل في قوله تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ ﴾.

يقتضي الغيبة فيقال: {ينبت} أي الله تعالىٰ، ولكن التفت الىٰ التكلم، علىٰ أنه إخبار من الله تعالىٰ عن نفسه بأنه هو الذين أنزل الماء من السماء، ليشرب منه الخلائق، ويكون سببا في حياة بني الانسان، والأشجار، بل حياة سائر المخلوقات، وصدق الله حيث قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ ولو ظل الأسلوب القرآني علىٰ الغيبة لما تحقق هذا المعنىٰ البلاغي.

وأخيرًا:

منـــاي في الـــدنيا علومـــا أبثهـــا ... وأنشـــرها في كـــل بـــاد وحاضـــر

دعـــاء إلـــىٰ القـــرآن والســـنن التـــي ... تناســـىٰ رجـــال ذكرهـــا في المحاضـــر

أسأل الله أن يتقبل مني وأن يوفقني لما فيه خيري الدنيا والآخرة. اللهم أصلح لي ذريّتي وأصلح لي نيّتي، وأصلح لي شأني وعملي، واجعل أعمالي خالصة لك.

هذا ما وفقني الله لجمْعه وكتابته فإن كان من توفيق فمنه وحده سبحانه وتعالىٰ، وإن كان فيه من خطأ أو زلل - وهذا أمر لا شك فيه - فإنما نحن بشر، والعصمة للأنبياء، والكمال لله وحده، لكنه جهد المقلّ.

إني كتبـــت وايقنـــت يـــوم كتـــابتي ... أن يـــدىٰ تفنـــىٰ ويـــبقىٰ كتـــابها

فـــإن عملـــت خيـــرا ســـتجزىٰ بمثلـــه ... وإن عملـــت ســـوءا فعليهـــا حســـابها

(١) ينظر: القراءات وأثرها في علوم العربية، محمد محيسن (٢/ ١١٨).

المؤلف في سطور

أبو محمود عبد الجواد أحمد عبد المولى آل موسى السيوطي المصري، من مواليد قرية نجع سويلم، مركز ديروط -محافظة أسيوط – مصر. يوم الاثنين ١٣٩٥/٥/٣٠هـ الموافق ١٩٧٥/٦/٩م.

حاصل على: أصول الدين جامعة الأزهر عام٢٠٠١م، ثم كلية الشريعة جامعة الأزهر، عام ٢٠٠٦م، عالية القراءات عام ٢٠٠٤م تخصص القراءات عام ٢٠٠٧م دراسات عليا بكلية الشريعة. ماجستير في التفسير من جامعة «القرآن وتأصيل العلوم» بالسودان، باحث دكتوراه بنفس الجامعة، ماجستير القرآن وعلومه بكلية الدراسات الإسلامية بمنيسوتا، أمريكا، باحث دكتوراه بنفس الجامعة...

ـ الوظائف والخبرات:

- إمام وخطيب بالأوقاف بوزارة الأوقاف المصرية.
- مشرف تعليمي بجمعية تحفيظ القرآن بمحافظة رابغ.
- مؤسس قسم القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية القرغيزية.
- إجازة في القراءات من أكثر من شيخ.
- دبلوم المدرب الدولي المعتمد من الأكاديمية العالمية لعلوم التنمية (IADS).
- دبلوم المستشار الأُسري والتربوي الأكاديمية العالمية لعلوم التنمية (IADS) وجامعة هارفرد واكسفورد
- دورات في تدريس اللغة العربية للناطقين بغيرها، من اتحاد المدارس الإسلامية العالمية.
- مدرس قرآن وتجويد بمعاهد نور الإسلام الأزهرية النموذجية.
- رئيس وعضو لجنة التحكيم بالمسابقات الدولية للقرآن الكريم بدول وسط

آسيا (٢٠٠٨/٢٠٠٩).

مؤلفاته:

١- كتاب (مالا تعرفه عن الهجرة) قيم تربوية «مطبوع»

٢- كتاب (أيها الشباب لا تفقدوا الأمل) «مطبوع».

٣- العدول في القرآن (من الفاتحة للكهف) دراسة وتحليل (الماجستير). مطبوع

٤- وكتابنا هذا (أسرار الالتفات في سورة النحل).

٥- كيف نقرأ القرآن؟ (تجربة أكثر من ٢٠ عاما في كيفية نطق الحروف) مخطوط

٦- (أسرار الالتفات في سورة الإسراء) مخطوط.

٧- كتاب (تنبيه الأنام بشرح حديث غربة الإسلام) مخطوط.

المحتويات

مقدمة المؤلف ٧
أولًا: معنىٰ الالتفات..... ٩
الالتفات: ١٠
سبب الالتفات: ١٠
ثانيا: شيئا من فضائل القرآن ١٢
القرآن الكريم أهميته وفضله:..... ١٢
ثالثا: سورة النحل وما ورد فيها من فضائل..... ١٧
(أ): فضائل سورة النحل..... ١٧
(ب): اسم السورة ومكيتها ومدنيتها..... ١٨
(ج) علاقة السورة بما قبلها..... ١٩
(د) ترتيب السورة في المصحف وسبب النزول..... ٢٢
(هـ) حديث السورة إجمالا..... ٢٢
رابعا: الالتفات في سورة النحل..... ٢٥
أولًا: الالتفات عن الغَيْبة إلىٰ الخطاب..... ٢٥
النموذج الأول: في الالتفات عن الغَيْبة إلىٰ الخطاب. ٢٣
أولا: تفسير الآية موضع الالتفات والقراءات الواردة فيها..... ٢٥
ثانيًا: موضع الالتفات عن الغيبة للخطاب في الآية الكريمة..... ٣٣
ثالثًا: الخلاصة في بيان الالتفات: ٣٣
النموذج الثاني: في الالتفات عن الغيبة إلىٰ الخطاب..... ٣٥
أولا: تفسير الآية الكريمة موضع الالتفات والقراءات الواردة فيها. ٣٥
المعنىٰ العام:..... ٣٧
ثانيًا: موضع الالتفات من الغيبة للخطاب في الآية الكريمة: ٣٧

النموذج الثالث: في الالتفات عن الغيبة إلىٰ الخطاب..... ٤١
أولا: تفسير الآية الكريمة موضع الالتفات والقراءات الواردة فيها. ٤١
ثانيًا: موضع الالتفات من الغيبة للخطاب في الآية الكريمة: ٤٣
ثالثًا: الخلاصة في بيان الالتفات عن الغيبة إلىٰ الخطاب:..... ٤٥
ثانيًا: الالتفات عن ضمير الخطاب إلىٰ ضمير الغيبة..... ٤٧
النموذج الأول: في الالتفات عن الخطاب إلىٰ الغيبة. ٤٧
أولا: تفسير الآية موضع الالتفات والقراءات الواردة فيها..... ٤٧
ثانيًا: موضع الالتفات من الغيبة إلىٰ التكلم في الآية الكريمة:..... ٥٥
رابعًا: الخلاصة في بيان الالتفات من الخطاب إلىٰ الغيبة..... ٥٨
النموذج الثاني: في الالتفات عن الخطاب إلىٰ الغيبة..... ٥٩
أولا: تفسير الآية الكريمة موضع الالتفات والقراءات الواردة فيها. ٥٩
ثانيًا: موضوع الالتفات من ضمير الخطاب إلىٰ ضمير الغيبة في الآية: ٦٢
ثالثا: الخلاصة في بيان الالتفات ٦٥
النموذج الثالث: في الالتفات عن الخطاب إلىٰ الغيبة..... ٦٧
أولا: تفسير الآية موضع الالتفات والقراءات الواردة فيها..... ٦٧
ثانيًا: موضع الالتفات من ضمير الخطاب إلىٰ ضمير الغيبة في الآية الكريمة: ٧٢
ثالثا: الخلاصة في بيان الالتفات. ٧٢
النموذج الرابع: في الالتفات عن الخطاب إلىٰ الغيبة. ٧٥
أولا: تفسير الآية موضع الالتفات والقراءات الواردة فيها..... ٧٥
ثانيًا: موضع الالتفات من الخطاب إلىٰ الغَيْبة في الآية الكريمة: ٨٠
ثالثا: الخلاصة في بيان الالتفات في الالتفات عن الخطاب إلىٰ الغيبة.: ٨٢
ثالثا: أسرار الالتفات عن الغيبة إلىٰ التكلم..... ٨٥
النموذج الأول: في الالتفات عن الغيبة إلىٰ التكلم..... ٨٥
أولا: تفسير الآية الكريمة موضع الالتفات والقراءات الواردة فيها. ٨٥

فيمن نزلت الآية؟ ٩٠
ثانيًا: موضع الالتفات من الغيبة إلىٰ التكلم في الآية الكريمة:..... ٩٤
رابعًا: الخلاصة في بيان الالتفات:..... ٩٥
النموذج الثاني: في الالتفات عن الغيبة إلىٰ التكلم. ٩٧
أولا: تفسير الآية الكريمة والقراءات الواردة فيها. ٩٧
الإعراب: ١٠٠
سبب نزولها:..... ١٠٢
ثانيًا: موضع الالتفات من الغيبة إلىٰ التكلم في الآية الكريمة:..... ١٠٤
ثالثا: الخلاصة في بيان الالتفات عن الغيبة للتكلم..... ١٠٨
النموذج الثالث: في الالتفات عن الغيبة إلىٰ التكلم..... ١١٠
أولا: تفسير الآية الكريمة موضع الالتفات والقراءات الواردة فيها. ١١٠
الإعراب: ١١١
المعنىٰ:..... ١١٤
الجوانب البلاغية في الآية..... ١١٤
ثانيًا: موضع الالتفات من الغيبة إلىٰ التكلم في الآية الكريمة:..... ١١٨
ثالثا: الخلاصة في بيان الالتفات عن الغيبة للتكلم..... ١١٨